الصورة المثالية للممدوح
في شعر ابن فُركون
(المتوفى نحو٨٢١هـ)
دراسة موضوعية فنية

الدكتور

عبدالعظيم عبدالرؤوف عبدالعظيم أبوعلي

مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالسادات.

الصورة المثالية للممدوح في شعر ابن فركون (المتوفى نحو ٨٢١هـ) دراسة موضوعية فنية

عبدالعظيم عبدالرؤوف عبدالعظيم أبوعلي.
قسم الأدب والنقد،كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر، السادات، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني:
AbdElazeemAbderaof.٤١٩@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز القيمة التاريخية والفنية لشعر ابن فركون، ومعرفة المضامين التي أسبغها الشاعر على ممدوحه، وهل جدد فيها وابتكر صورا تواكبُ عصرَه وتناسب بيئته؟ أو صار على منوال القدماء؟

أما عن المنهج المتبع في دراستي فهو المنهج التاريخي والتحليلي الفني.

وقد توصل البحث لعدة نتائج أهمها مايلي:

تنوعت صورة الممدوح عند ابن فركون من فضائل نفسية وعرضية عتيقة وإسلامية كالفتح ونصرة الدين الحنيف، فكانت صورًا قديمة، افتقر فيها إلى التجديد والابتكار. كما جاءت جل صور ممدوحه متداخلة بين الكرم والشجاعة، وبين الصورة الدينية والسياسية حينا آخر؛ حتى لا يكاد نستطيع الفصل بينهما. كما دلت صورة الممدوح عند ابن فركون على أن العصر الغرناطي كان عصر اضطرابات، بين مد وجزر، إلا أن السلطان يوسف ظل محافظا على ملكه قدر المستطاع، بالجهاد تارة، وبالمصالحة تارة أخرى.

الكلمات المفتاحية: الصورة – الممدوح – القائد– الإنسان– ابن فركون.

The ideal image praised in the poetry of Ibn Farkoun (died circa ٨٢١ A.H). Technical objective study

Abdul Azim Abdul Raouf Abdul Azim Abu Ali.
Department of Literature and Criticism, College of Islamic Studies, Al-Azhar University, Sadat, Arab Republic of Egypt.
Email: AbdElazeemAbderaof.٤١٩@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to highlight the historical and artistic value of Ibn Farkoun's poetry, and to know the contents that the poet bestowed on his praise, and whether he renewed it and created images that keep pace with his time and are appropriate to his environment? Or became like the ancients?

As for the curriculum followed in my study, it is the historical, analytical and technical method.

The research has reached several results, the most important of which are:

The Diversified of the image of Al-Mamdouh according to Ibn Farkoun from the psychological and occasional archaic and Islamic virtues, such as conquest and the victory of the true religion, so they were old images, in which they lacked innovation and innovation. Most of the pictures of praise were intertwined between generosity and courage, and between the religious and political image at another time. So that we can hardly separate them. The image of Al-Mamdouh according to Ibn Farkoun indicated that the Granada era was an era of turmoil, between ebb and flow, but Sultan Yusuf maintained his possession as much as possible, by jihad at times, and by reconciliation at other times.

Key words: the Image - Al-Mamdouh - the leader - the human - Ibn Farkoun.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،،،

وبعد،،،،

فقد ظل الأدب الأندلسي على مر العصور معينا لا ينضب، فلا تزال هناك جوانبُ كثيرةٌ لم تدرس منه، ولم تأخذ نصيبها كاملاً من عناية الباحثين ورعاية المهتمين بالتراث العربي، لذا أصبح قبلة الباحثين ومقصد الدارسين. إن دولة بني الأحمر تعد أخر معاقل المسلمين في الأندلس وقد بلغت أوجها الثقافي والحضاري في ذلك الوقت ، وازدهرت الحياة الأدبية بازدهار البيئة آنَذَاك ، وقد برز عدد من العلماءِ الشعراءِ في ذلك الوقت منهم القاضي ابن فركون ، وهو أبو الحسن بن أحمد بن سليمان القُرَشِي المعروف بابن فُركون، وكان على علاقة وطيدة بيوسف الثالث ملك غرناطة فكتب فيه غرر القصائد وصور حياتَه السياسية والثقافية والاجتماعية. لذا كان موضوع دراستي الصورة المثالية للممدوح في شعر ابن فُركونَ دراسة موضوعية فنية . **وذلك للأسباب الآتية:**

- أن شعر ابن فركون يعد مادةً غنيةً جديرةً بالدراسةِ لما لها من قيمةٍ أدبيةٍ وفنيةٍ.
- أن هذا الموضوع لم يحظ بدراسةٍ مستقلةٍ عند الشاعر، بل إن الدراسات السابقة للشاعر ضئيلة جدا.

كما يقرر الباحث قاسم القحطاني بكون شعر ابن فركون وثيقة تاريخية شاهدة على العصر، فهل كان خاليا من الناحية الفنية والشعورية؟ أو كان نابعا عن

شعور فني صادق، وما المضامين التي أسبغها الشاعر على ممدوحه ؟ وهل جدد فيها وابتكر صورا تواكبُ عصرَه وتناسب بيئته؟ أو صار على منوال القدماء؟ هذه أهم الأسئلة التي يبنى عليها البحث.

أما عن الدراسات السابقة: فهي: ابن فركون شاعرا رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، للباحث أحمد عبدالغني حسن، وكتاب: ابن فركون شاعر غرناطة لقاسم القحطاني.مطبوعات دار الكتب بأبي ظبي. وقد تناولت هاتان الدراستان التعريف بالشاعر وعرض أغراض شعره من مدح، وغزل، وتهان، وشعر سياسي، غير أنها لم تعن بعرض سمات ممدوح ابن فركون أو بطله على حدة، لا موضوعيًّا ولا فنيًّا.

أما عن أهم المصادر والمراجع التي سأعتمد عليها فهي: ديوان الشاعر بتحقيق محمد بن شَريفة، طبعة المغرب ، ويقع في حوالي أربعمائة صفحة، يحتوي الربع الأول من الديوان على التعريف بالشاعر وسيرته والقيمة التاريخية للديوان، كما اشتمل على علاقة الشاعر بيوسف الثالث ملك غرناطة وعلاقة يوسف الثالث بالمغرب . أما باقي الديوان فقد تنوعت فيه أغراض الشاعر بين المدح والشعر السياسي والوصف والغزل وغير ذلك. وديوان مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر، من الدواوين الغرناطية التي تجمع بعض مدائح الملك الناصري يوسف الثالث لعدد من شعراء عصره، ومنهم ابن فركون، تأليف: أبو الحسين بن فركون تحقيق: محمد بن شريفة بالمغرب .

أما عن خطة الموضوع فتتمثل في مبحثين يسبقها مقدمة وتمهيد ويعقبهما خاتمة، وهي كالتالي:

مقدمة : أهمية الموضوع وسبب اختيار الموضوع .

تمهيد: ابن فركون ومصطلحي الصورة والمدح.

أولا : التعريف بابن فركون . ثانيا:- مفهوم مصطلحي الصورة والمديح.

المبحث الأول: المحاور الموضوعية لصورة الممدوح في شعر ابن فركون

المطلب الأول: الممدوح الإنسان.

أولا: الحسيب النسيب.

ثانيا: التقي الورع.

ثالثا: الكريم الجواد.

المطلب الثاني: الممدوح القائد.

أولا: الشجاع الهمام.

ثانيا: السياسي الفطن.

ثالثا: الفاتح المجاهد.

المبحث الثاني:ملامح فنية لعرض صورة الممدوح في شعر ابن فركون .

المطلب الأول: المعجم الشعري .

أولا: الألفاظ الموروثة.

ثانيا: التكرار.

المطلب الثاني: الموسيقى الشعرية.

أولا: الموسيقى الخارجية.

ثانيا: الموسيقى الداخلية.

المطلب الثالث: الصورة الشعرية.

أولا: الصورة التشبيهية.

ثانيا: الصورة الاستعارية.

ثالثا: الصورة الكنائية.

الخاتمة: أهم النتائج التي توصلت إليها البحث.

أما عن المنهج المتبع في دراستي فهو المنهج التاريخي والتحليلي الفني . وأسأل الله أن يجنبني الزلل وأن يوفقني على إتمامه في أكمل وجه.

هذا والله المستعان .

تمهيد: ابن فُركون ومصطلحي الصورة والمدح.

أولاً: التعريفُ بابن فُركون:

هو أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن فُركون، القرشي النسب الغرناطي الموطن. والده هو الكاتب القاضي أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشي[١] ، وقد ولد ابن فركون في غرناطة عام ٧٨١م،[٢] ويرجع أصل الاسم "فركون" كما يرجح المأرخون إلى أن " أسرة ابن فركون (Forkun) غير عربية، وإنما هو من أسرة المولَّدين"[٣]

كان لابن فركون ثلاثة أولاد، الأوّل من الثلاثة سمّاه له الملك يوسف باسمه والولد الثاني سمّاه الملك أيضًا باسم أبا الطاهر، والثالث سمّاه أبوه أحمد، وهو من بقي على قيد الحياة زمن ابن فركون، ويعد ابن فركون " أحد تلاميذ ابن الخطيب ومن خاصته... ولما بويع يوسف الثالث مدحه ابن فركون، فنال عنده الحظوة، وغدا شاعره المختص المؤرخ لأيامه بشعره، وأصبح ابن فركون بفضل منصبه وأدبه مرموقاً في المجتمع الغرناطي." [٤]

كان لابن فركون أمل وطموح عاليين أوصلاه لأن يكون كاتبًا في ديوان الكتابة في غرناطة، ثم كلف بتنفيذ النفقات التي تمّ تخصيصها للغزاة ، وأخيرًا عُيّن كاتب سر الملك يوسف الثالث عام ٨١٤م وبقي في ذلك المنصب حتى وفاته. فهو يعدّ شاعر البلاط النّاصري في عهد الملك يوسُف

---

(١) ابن فركون الأندلسي شاعر غرناطة، قاسم القحطاني، ط١، دار الكتب الوطنية أبو ظبي سنة ٢٠٠٩م صـ ٣٦-٣٩ .

(٢) السابق صـ٣٨

(٣) السابق صـ٣٨

(٤) معجم الشعراء العرب ، تم جمعه من موقع الموسوعة الشعرية، ج١/٢١٠

الثالث، "وكان صديقه وشاعره، وكاتب سرِّه، الذي رافقه طوال مدة حكمه. وعرف ابن فركون بذكائه الشديد حيث "ورث عن أبيه الذكاء الحاد والنبوغ المبكر إذ نجدهُ في عام ثمانية وتسعين وسبعمائة يقول الشعر، وكان يومئذ طالبًا صغير السن"[١] والقارئ لحياة ابن فُركون يجده طموحا متطلعا إلى الأفضل يريد الوصول لـ "ديوان الإنشاء بعد أن اكتسب الأدوات وامتلك المؤهلات كجمال الخط–الذي اشتهر به والده كذلك– ....ولما مات محمد السابع ، وبويع يوسف الثالث، أشار أبو المعالي قاضي الجماعة علي أبي الحسين أن يحتال لنفسه، ويتقدم إلى السلطان الجديد بمدائحه"[٢]. ففعل ابن فركون ذلك وهنأ الملك، بقوله:

فهنئتَ ما استقبلتَ ياملك الهدى من العزِّ لا زالتْ سعودُك مقبلةْ
لقد قلَّد الرحمن أمر عباده إماما له في العدلِ أرفع منزلةْ[٣]

وبذلك أصبح لابن فركون مكانة مرموقة في البلاط الغرناطي، فبات شاعر الملك يوسف الثالث، وكاتب سره إلى أن "توفي الملك يوسف الثالث عام(٨٢٠هـ) وكان ابن فركون قد بلغ من العمر تسعة وثلاثين عاما"[٤] فرثاه بقصيدة ختم بها شعره، وصمت بعدها إلى الأبد".[٥]

(١) ديوان ابن فركون، صـ ٢٢
(٢) ديوان ابن فركون، صـ ١٣
(٣) ديوان ابن فركون ، صـ ١٤
(٤) ابن فركون الأندلسي شاعر غرناطة، صـ٤٣
(٥)ابن فركون الأندلسي شاعر غرناطة، صـ ٢٢

عصر ابن فركون:

كان عصر ابن فركون عصر انكسارات وهزائم ما بين مدٍّ وجزر، وسقوط إمارات وفتح بلدان، ومناوشات ومهادنات بين المسلمين ونصارى الإسبان وهذا استدعى من شاعرنا أن يمجد هذا الممدوح المنقذ من هذه الحالة المتردية سياسيا واقتصاديا.

فنظم فيه غرر القصائد في المديح والتهاني والشعر السياسي، ومعظم قصائد المديح الأندلسية كانت "موجهة إلى أمراء الأندلس وخلفائهم وملوكهم، وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، وهذه لا تخرج عادة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة، وما أشبه ذلك، أما الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تعد نصرا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية"(١)

لقد شارك ابن فركون في مجال السياسة من خلال قصائد التهنئة بالانتصارات والعودة من الغزوات، فكان بمثابة وثيقة تاريخية فنية حافلة بالأحداث والوقائع، وبذلك أدى الأدب رسالته المنوطة به فقد عكس صورة الحياة السياسية والاجتماعية من خلال تصويره لهذا القائد والبطل السياسي وما تحويه الحياة السائد آنذاك .

(١) الأدب العربي في الأندلس ، د/عبدالعزيز عتيق، بيروت لبنان دار النهضة العربية د.ت، صـ ١٨٥

السلطان :يوسف الثالث

هو السلطان أبو الحجاج يوسف **الملقب بالناصر لدين الله** ولد السلطان أبو الحجاج يوسف الملقب بالمستغني بالله، ابن السلطان محمد الخامس الملقب بالغني بالله، وقد ولد في عام ثمانية وسبعين وسبعمائة"[١] وقد "حكم غرناطة من سنة ٨١٠هـ إلى سنة ٨٢٠هـ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بنى الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حقّقه الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨م، ... ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهى ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت فى أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثانى، وله مراثٍ فى بعض إخوته وأبنائه" [٢]

وقد تولى الملك "يوم الأحد السادس عشر لذي حجة عام عشرة وثمانمائة، وهكذا اعتلى عرش غرناطة يوسف الثالث الذي كان أحق بالخلافة قبل أخيه، بعد سجن طويل، وعاد بعد طردٍ وإبعاد"[٣] فأقبل عليه الناس يبايعونه، والشعراء يمدحونه ويهنئونه بغرر القصائد والأشعار منهم الشاعر أبو الحسين ابن فركون، ووالده أبو جعفر أحمد ابن فركون، وغيرهم من شعراء البلاط الغرناطي. يجمع الشعراء الذين مدحوا يوسف الثالث على وصف جمال هيئته، وبهاء طلعته، ويذكرون أن اسمه وافق مسماه، وأنه كان بدري الوجه.

---

(١) ديوان ابن فركون ، صـ ١٩

(٢) تاريخ الأدب العربي الدكتور شوقي ضيف، طبعة دار المعارف – مصر الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥ م، صـ ٢٢٠

(٣) ديوان ابن فركون ، صـ ٢٦ بتصرف.

كما كان سياسيا فطنا يحرص على مصلحة رعيته حيث يتنقل من حين لآخر"في مملكته لتفقد أحوال البلاد، أو لمعالجة القضايا الطارئة أو للإشراف على تنفيذ خططه السياسية"[١].

ثقافته:

تهيأ للملك يوسف الثالث عدة ثقافات دينية وأدبية كبيرة، من خلال أعلام أفذاذ تتلمذ على يديهم، حتى صار أديبا بارعا، محبا للشعر والأدب فكانت ثقافته "علمية وأدبية متينة كما تدل على ذلك كتاباته وتعليقاته وأشعاره"[٢] ولا أدل على ذلك من تقريبه للشعراء والأدباء، ينقدهم حينا ويعارضهم حينا آخر فقد نقد قصيدة أبي عثمان الأُلْيري، في قصيدة نظمها عدد فيها "مواطن القوة الضعف، ونراه يشير إلى كسرٍ في بيت من القصيدة، ويقوم بتصحيح وزن البيت"[٣] وقد خلف لنا ديوانا نظم فيه أغراض الشعر العربي من وصف وغزل وفخر ومدح ورثاء وزهد إلى آخر تلك الأغراض، وبذلك فقد "لمع في القرن التاسع الهجري أسماء عدد من الشعراء والكتاب الذين حملو لواء الأدب والثقافة في غرناطة وكان على رأسهم الملك يوسف الثالث(٨٢٠هـ)ملك غرناطة الثالث عشر، الذي انتعشت الحركة الأدبية في عهده، فزخر بلاطه بعدد من الأدباء والكتاب منهم: أبو بكر بن عاصم(٨٢٩هـ) وابنه أبو يحي بن عاصم، وأبو الحسين ابن فركون"[٤]

---

(١) ديوان ابن فركون ، صـ ٣٩

(٢) ديوان ابن فركون ، صـ ٢٠

(٣) ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة، أبو الحجاج يوسف الثالث، تحقيق عبدالله كنون، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية.صـ ٣١-٤٤

(٤) ابن فركون الأندلسي شاعر غرناطة، صـ ٣٥

شاعرنا الذي نعيش معه في هذا البحث، كل هذا كان له بالغ الأثر على الحركة الأدبية المزدهره في عصره.

وفاته:

توفي السلطان يوسف الثالث سنة ٨٢٠هـ[١] ، بعد حكم طال تسعة أعوام، وبذلك فقد مات شابا صغيرا لم يتجاوز الأربعين من عمره، قضى بعضها في سجنه والبعض الآخر امتلأ بالمشاحنات والغارات بينه وبين العدو النصراني من ناحية ، وبين أبي سعيد المريني من ناحية أخرى "ففى الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبى سعيد عثمان المرينى صاحب فاس (٨٠٧ – ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق." [٢] فضلا عن أعباء دولته الداخلية.

ثانيًا: مفهوم الصورة:

ورد في لسان العرب: " تصورت الشيء ، توهمت صورتهن فتصور لي، والتصاوير: التماثيل، قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته"[٣] كما ورد في كتاب الله تعالى: قوله تعالى:(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) [٤] ، أي أي الموجد على الصفة التي يريد، وقوله تعالى:(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ

---

(١) ديوان ابن فركون ، صـ ٤٤

(٢) تاريخ الأدب العربي الدكتور شوقي ضيف، طبعة دار المعارف – مصر الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥ م، صـ ٢٢٠

(٣) لسان العرب مادة (ص/و/ر).

(٤) سورة الحشر آية ٢٤

رَكَّبَكَ) [١]، أي خلقك وسوّاك، وقوله تعالى:(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) [٢]، أي شكلكم وهيئتكم ، فقد وردت الصورة في الآيات الكريمة بمعنى : الإيجاد، والخلق، والشكل.

مفهوم الصورة عند عبد القاهر الجرجاني(٤٧١) هـ فعند حديثه عنها قد استخدم عدة ألفاظ منها : الصورة والتصوير، والتمثيل، فقوله "واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا" [٣]

حيث تدخل في صميم التجربة الشعرية، إذ تعبير عن نفسية الشاعر وحالته، ومن هنا لابد أن تؤدي الصورة وظيفتها داخل التجربة الشعرية، وأن تترك أثرا أو تأثيرا في المتلقي.

كما نجد الدكتور عبد القادر القط يحدد مفهوما مقبولا لها قوامها الألفاظ والتراكيب، وجميع العناصر الفنية من مجاز وحقيقة وإيقاع، يقول "هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات، بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد، والمقابلة والتجانس، وغيرها من وسائل التعبير الفني"[٤] وهذا التعريف قد اجتمع فيه وسائل التعبير والتصوير

---

(١) سورة الانفطار آية ٨

(٢) سورة غافر آية٦٤

(٣)دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني، الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، المتوفى: ٤٧١هـ ، صـ٥٠٨ ،تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي بالقاهرة.

(٤) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د/عبد القادر القط، صـ ٣٩١، مكتبة الشباب، بالمنيرة، ١٩٨٨م.

المتاحة للشاعر من الألفاظ و العبارات ، مع عدم إهماله البيان و البديع و دورهما في تشكيل الصورة. فشعر ابن فركون"غنيٌّ بالصور، شأنه في ذلك شأن الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري"[١] ومهمة الصورة الفنية أن تثير في نفوسنا انفعالات وتأثيراً جميلاً "فالنفس الإنسانية مولعة بكل ما هو جميل ، أما المجاز فهو يكسوا الصور الأدبية جمالاً وروعة تجذب إليه النفوس"[٢] وتتشوق إليه النفس، بما تحدثه من إيقاظ للوجدان، ولفت نظر الممدوح فيتفاعل معه، وبذلك تعد طريقة خاصة من طرق التعبير الحيوي الجميل.

(١) الشعر الأندلسي، د/ الحسيني، صـ ٣٤٣

(٢) الصورة البيانية، د/ حفني محمد شرف صـ ٢٢١، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة، بدون تاريخ.

ثالثا: مفهوم المدح.

ذكر ابن منظور في اللسان : المَدح نقيض الهجاء، وهوحُسن الثَّناء[١] وفي اصطلاح أهل الأدب، المدحُ هو وصف الشَّاعر غيرَه بالجميل والفضائل وثَناؤه عليه. وجاء في كتاب القاموس للفيروزآبادي : مَدَحَه كَمَنَعَه مَدحا ومِدحَةً : أحسَنَ الثَّناءَ عليه....والمديحُ والأُمْدُوحَةُ ما يُمدَحُ به، جمعُه : مَدائِح، وأَماديح .[٢]

وجاء في المعجم الوسيط " مَدَحه مَدحا أثنى عليهِ بما لهُ من الصفاتِ، مَدحهُ: أكثر مَدحَه – تمَادحَا : أي مَدحَ كل منهما الآخر."[٣] والمدحُ هو ذكر شمائل الممدوح وخصاله الحميدة، وصفاته الكريمة ، والإشادة بمآثره وأعماله، وذكره بكل ما يحبه ويرضاه.

"لم يكن هذا الباب من بين أبواب الشّعر العربي في أوّل نشأته، وأكبر الظّنّ أنّه تأخّر في الوجود عن كثير من فنون الشّعر التي يتغنّى فيها الشاعر بعاطفة قديمة شخصيّة".[٤] نهج شعر المدح في بداية هذه المرحلة الأخيرة منهجه القديم، فجرى مع إعجاب الشاعر بشخصيّة الممدوح والتأثُّر بفضائله ومآثره، أو الشكر ليدٍ عليه لم يستطع أداءَ حقّها إلاّ بالشعر تعظيما أو تخليدا لها، فلم يكن للشاعر مطمعٌ وراء مدحه هذا.

---

(١) لسان العرب، مادة : م/د/ح

(٢) القاموس المحيط، مادة : م/د/ح

(٣) المعجم الوسيط مادة م/د/ح

(٤) أسس النقد الأدبي عندالعرب، الدكتور/أحمدبدوي، مطبعة دار النّهضة، القاهرة.صـ ١٧٧:

وممّا ذكروا من شروط المديحة أيضاً أن يكون آسلوبُها جزلاً، وألفاظها نَقيّةً مُختارةً لا ابتذال فيها ولا سُوقيّة، وأن تكون مُتوسِّطة الطول إذا قيلت في مدح عظيمٍ خَوفاً من سآمته ويُمدح القائد بالجود والشّجاعة وما تَفرّع منهما؛ والقاضي بما يُلائم مع العدل والإنصاف. من هنا نشأ إعجاب الشاعر بالقيم العليا، والأخلاق الكريمة والأفعال العظيمة لدى هذا الممدوح، فما كان منه إلا أن يطلق لسانه بالإشادة والإعجاب، فقد "أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد، والرأي السديد، والشجاعة الفائقة، والكرم الواسع، كما أعجب به غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة، لذلك أثنى على الرجال المتفوقين، والشجعان المشهورين، والقواد العظماء، والرؤساء المسودين، وامتدح المثل العليا، التي رآها عندهم، ولكنه نظر إلى الملوك، ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم، من بون شاسع وفرق واسع"[١]

(١)فن المديح د/سامي الدهان صـ ١٤ الطبعة الخامسة ، دار المعارف – القاهرة.

المبحث الأول

المحاور الموضوعية لصورة الممدوح في شعر ابن فركون.

المطلب الأول: الممدوح الإنسان.

أولا: الحسيب النسيب.

ثانيا: التقي الورع.

ثالثا: الكريم الجواد.

المطلب الأول: الممدوح الإنسان.

١. الحسيب النسيب.

٢. التقي الورع.

٣. الكريم الجواد.

نطالع في هذا البحث أشعارا لحقبة زمنية معينة خلال العقود الأولى من القرن التاسع الهجري، وتتمثل في شعر ابن فُركون القرشي.

أولاً:صورة الحسيب النسيب.

من الفضائل النفسية التي تغنى بها العرب قديما الحسب والنسب والأصل العريق، ولما جاء الإسلام تغنوا بنسبهم القريب من الصحابة والصالحين رضوان الله عليهم، وقد صار على هذا المنوال الشاعر ابن فركون، في إسباغ الأصالة والمكارم لمن يرجع نسبهم للأنصار، وفي ذلك يقول: (الطويل)

هو الملكُ المولى الهمامُ الذي لهُ مكارمُ تُزري بالغمَائم مُسْبلهْ
ورأي رشيدٌ لو تقادمَ عهدُهُ لأمّله فيه الرشيد وأمَّ لهْ[1]
من النفر الغرِّ الذين وجوهُهُم لإشراقها تعنو البدورُ مكمَّلهْ
لك المجد في الأملاكِ يروى حديثُهُ وقيس بن سعد في القديم تأثَّلهْ
فآباؤكَ الأنصارُ جاءت بذكرِهم همُ لنا سورةٌ في محكمِ الذكرِ منزلهْ
أوضحوا نهجَ الهدايةِ للورى وهم نصروا دينَ الإله ومرسلهْ [2]

فها هو ذا ملك همام صاحب مجد وعز، له مكارم كبيرة وآراء حكيمة، يرجع نسبه إلى الصحابي الجليل قيس بن سعد- رضي الله عنه- فالشاعر حريص في أكثر من صورة على إرجاع نسب ممدوحه إلى أنصار النبي -صلى الله عليه وسلم- لما فيها من عزة ومجد.

---

(١) الرشيد: الخليفة هارون الرشيد، أَمَّلَهُ (تَأْمِيلًا) وَ (تَأَمَّلَ) الشَّيْءَ نَظَرَ إِلَيْهِ مُسْتَبِينًا لَهُ. الصحاح للجوهري ، مادة أ/ م/ ل

(٢) السابق ، صـ ١٠٤

وغالبا ما يعدد الشاعر صفات ممدوحه وذكر حسبه ونسبه، فعراقة النسب تعد من إحدى المكونات الأساسية لصورة الممدوح الشجاع والإنسان، ومن ذلك أيضا قوله: **(الرجز)**

يوسفٌ الناصرُ بحرُ النَّدى ... ومن له قيس بن سعدٍ أبُ[1]
فالهاميانِ رحمةٌ للورى ... نواله والمطرُ الصّيبُ
والنيرانِ في ظلامِ الدّجى ... جبينهُ المشرقُ والكوكبُ
والطيعانِ لعلى ملكهِ ... بعدلهِ المشرقُ والمغربُ
والماضيان منه يومِ الوغى ... عزْمتهُ وسيفهُ المرهبُ
والأشرفانِ بحُلى مُلكهِ ... مَدْحي لمولايَ وما أكتبُ [2]

يلح ابن فركون في صورته على كون هذا الملك كريم الأصل والحسب، إذ يرجع نسبه لقيس بن سعد الخزرجي، فهما كريمان أصيلان كالمطر، مضيئان في ظلام الليل، طيّعان لهما المشرق والمغرب، شجاعان تعرفهم يوم الوغى، فكيف لا يمدح شريفين من الأشراف بهذه الكلمات. وتتكرر صورة الحسيب النسيب في أكثر من موضع، فيقول: **(البسيط)**

فيوسفٌ ملك الدنيا وبهجتها ... وناصرُ الدين مهما راعهُ رهبُ
من كابن نصرٍ إذا عد الملوك ... مولى لصحبِ رسول الله ينتسبُ
بها آباؤه النفر الغر الذين لهم ... مآثر عظمتها العجم والعربُ [3]

([1]) قيس بن سعد بن عبادة الساعدي الخزرجي صحابي جليل من أكرم بيوت العرب وأعرقها نسبًا، فأبوه هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج.

([2]) ديوان ابن فركون ، صـ ١٠٨، وفي مظهر النور الباصر: بدر الهدى بدلا من بحر الندى.

([3]) السابق ، صـ ١٤٨

فمن كالخليفة يوسف؟ ومن أعظم نسبا منه؟ ملك صاحب سيادة وشرف لانتسابه للأنصار أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- فهم أصحاب المآثر والشيم العظيمة التي تتباهي بها العرب والعجم. وبذلك شكل ابن فركون بهذه الأبيات صورة النسب الكريم لممدوحه العزيز. ومن ذلك قوله: (الطويل)

بطيبة منه طاب أصلٌ ومنشأ وفي طيبةٍ أعظم بما حاز جدهُ
ففي هذه للفتحِ قدَّم قيسه وآوى رسول الله في تلك سعدهُ
ومن كان للصحبِ الكرامِ انتسابهُ فكيف يُضَاهي في الخلائف مجدهُ
بهم عزّ دينُ الله لما أعدَّهمْ لنصرِ الهدى عدنانُهُ ومعدُّهُ
لقد أنجبوا منهم خلائف فارتقتْ إلى العزِّ مرقى لا يجاوزُ حدُّهُ[1]

يشيد الشاعر بأصالة ممدوحة ومنشأه الطيب الأصيل ، فجده قيس بن سعد آوى النبي –صلى الله عليه وسلم- فهل من نسب أعرق وأعظم من هذا؟

ونطالع صورة الممدوح العالم الجواد في قوله : (الطويل)

ومنْ أمّ بحر الجود والعلم لا يرى على غيرِ مولانا ابن نصرٍ معرّجا
هو اليوسفيُّ الناصرُ الملك الذي عزائمهُ تخشىَ ورحماهُ تُرتَجى
هو اليوسفي العالمُ العلمُ الذي عواملهُ شهبٌ من النقعِ في دجى
فهذا إمامٌ تابعٌ جدهُ الذي غدا سيّدَ الأنصار أوسا وخزرجا
شمائلهُ تحكي الشمائل رقةً وأمداحهُ زهرَ الرياضِ تأرُّجا [2]

(1) السابق ، صـ ١٣٥
(2) السابق ، صـ ١٩٤

إن ابن فُركون يلح على المعاني ويكررها في أكثر من صورة فهو عالم جواد ذو عزم شديد ورحمة ترتجى، يرجع نسبه إلى قيس بن سعد، –رضي الله عنه – ونطالع صورة الممدوح النسيب في قوله: (الطويل)

وهـل كـانَ إلا الـنجمُ أطلـعَ نيـرًا ووجهك صبحٌ لاح في أفق المجدِ
فـلا تعجَّبـوا لمـا بـدا مـن غروبـهِ أيلتـاحُ نجـمٌ والضـحى نـورهُ يهـدِي
وكان كمَا تهوى المكـــارمُ قد بدتْ مخائلُ من قيس عليه ومن سعدِ [1]

فممدوحه كالنجم المضيء وكالصبح المشرق في سماء المجد، ولا عجب من ذلك فجده قيس بن سعد–رضي الله عنه .

(1) السابق ، صـ ١٣٢

ثانيا: صورة التقي الورع

كثيرا ما يمنح الشعراء المسلمون ممدوحيهم وأبطالهم بصفات التدين والالتزام والمحافظة على فرائض المولى جل وعلا، فهي صفات تعلي من شأن ممدوحيم وترفع من قدرهم، وقد نهج نهجهم شاعرنا ابن فركون، وفي ذلك يقول ابن فركون: **(الطويل)**

تطـوفُ ببيـت الله سـبعًا وتنثنـي وقـد محيـت أثنـاءهُ سـيئاتُها
ويهدى علـى قـربِ المـزار سـلامها بحيـثُ النبـيُّ المجتبـى وصـلاتها
فأهلا بهذا اليومِ في الموقف الذي إذا قصـرتْ طالـتْ بـه وقفاتهـا
كثيرٌ بمذخـورِ الثوابِ اهتمامُهـا قليـلٌ إلى ما خلفتـهُ التفاتها [1]

وتتكر صوره المصبوغة بالصبغة الدينية، التي تعلي من شأن ممدوحه الخليفة يوسف، فهو حاجٌ لبيت الله الحرام طائف حوله، وزائر قبر النبي المصطفى–صلى الله عليه وسلم– صاحب الثواب والفضل الكثير. ومن الصفات التي أسبغها ابن فركون على ممدوحه صورة الإنسان التقي الورع وفي ذلك يقول: (الكامل)

ملـكٌ صـلاةُ صـلاتهِ وخلالـهُ شـمسٌ تزيـلُ عـن النـواظرِ لبسـهَا
حـزمٌ وإقـدامٌ وعـزمٌ في تقًى في جود كفٍ قد أقامت خمسهَـا [2]

(1) السابق ، صـ ٢١٦
(2) السابق ، صـ ١٤٥

فممدوحه تقي ورع مقيم للصلوات الخمس، وشيمه وخلاله واضحة ذو عزم وحزم وإقدام فيما يرضي الله جل وعلا. ومن الصفات التي أسبغها ابن فركون على بطله صورة الخليفة الصوام القوام، حين يقول: (البسيط)

كم صمتَ واليومُ قد شبتْ هواجره وقمتَ والليلُ مسدولُ الجلابيبِ
والله قد ضاعفَ الأجرَ الجزيل بما ألمَّ من ألمٍ في اللوحِ مكتوبِ [١]

فها هوا ذا السلطان الصوام بالنهار القوام بالليل، يرجو ثواب الله وجزائه، ولا شك أن هذه الصفات الدينية، من مقومات ومكملات صفات الخليفة المسلم العارف بالله. لذا نجد الشاعر حريصا على أن يظهر ممدوحه على معرفة بكتاب الله، تقي وورع متدين يخاف الله جل وعلا، ويعمل على أداء مناسكه فضلا عن فصاحتة وبلاغتة وحلمه وعلمه.

ومن سمات الخلفاء القوة والمهابة والعظمة والبهاء، إلا أن عظمة هذا الممدوح تكمن في كونه يغفر الزلات، ويعفوا عن الهفوات، ويصفح عن المخطئين لذا أقرَّ له بالفضل كل معاند، والخير ما يشهد به الأعداء، فقرت أعينهم بهذه الشهادة، وفي ذلك يقول: (الطويل)

ألا أنهُ مولى الخلائِفِ يوسُفٌ إمامُ الهدى الفذُّ الأغرُّ المُمَدَّحُ
إمامٌ يفوق الدهرَ صَرفا على العِدى ويعفو عن الذنْبِ العظيمِ ويصفحُ
أقرَّ لـــه بالفضلِ كلُّ معاندٍ فقرَّت عيون المؤمنين وأفلحوا [٢]

---

(١) السابق ، صـ ٣٨١
(٢) السابق ، صـ ٢٠٥

فهذا الملك مولى الخلائف والخلائق، إمام أغرّ متفوق في كل وقت على أعدائه، ومن شيمه وإنسانيته أنه يعفو ويصفح عن الذنوب والزلات، ولا أدل على ذلك من الإقرار بالفضل له من الأعداء، ونطالع صورة أخرى تتجلى فيها صفة العطف والرحمة واللين لهذا البطل الإنسان حين يقول: (الطويل)

بعزمتــهِ حــاطَ الــبلادَ فمــا يُــرى بـأعطفَ منـهُ فـي الملـوكِ وأحوطـا
رؤوفٌ عطــوفٌ مــنعمٌ متفضــلٌ كـريم حلـيم يغفـرُ العمـدَ والخطـا
هو العادل الأرضَى هو الحكم الذي إذا قسطَ الأملاكُ في الحكمِ أقسطا[1]

فهو ملك عطوف رؤوف متفضل له أيادٍ سابغات على رعيته، يغفر لمن أخطأ ويعفوا عنه، وما ذلك إلا لكونه إنسانا يشعر ويحس بالآخرين، في الوقت نفسه عادلٌ مقسطٌ إذا حكم بين رعيته. ومما يدل على مدى إنسانية هذا الممدوح، ما نجده يعاتب قومه ويلومهم عندما تم زجه في السجن، ونسوا ما كان بينهم من الوصل والوفاء وفي ذلك يقول الملك يوسف :

عجبـت لقـومي جـازوا تواصـلي بقطـع حبـال الـودّ مـن غيـر مـا عـذر
بذلت وفـــاء ثم أقضى خيـــانـة فلله مـــا هذي القـواصم للظهـر[2]

(1) ديوان ابن فركون ، صـ ١٨٧

(2) ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة، أبو الحجاج يوسف الثالث، تحقيق عبدالله كنون، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢ صـ ٨١

يتعجب مما فعل به من قطع صلة الأرحام، وتتكرر صور هذا الملك الإنسان، المنعم على الغير في الخفاء والسراء، وفي ذلك يقول ابن فركون: (الكامل)

لا أرتجي عرضًا فكم من نعمةٍ أوليتُها بتلطفٍ وتعطفِ
لا أبتغي أربا فكم من مقصدٍ أسعفت من قبل السؤال المعتفي [١]

من أروع صور ممدوحه أنه يعطي وينفق برفق وعطف ولين، يسعف المحتاجين قبل سؤالهم وطلبهم للعطية، ونطالع صورة أخرى للخليفة الإنسان صاحب الشم الرفيعة، حين يقول: **(الكامل)**

مولاي لا تُحصى خلالُك في العلا إلا بآيات الكتاب المحكم
فإليكما طوعَ البلاغة آثرت حكمَ البدار إليك دون تلوُّم
جاءتك من حر الكلام بلؤلؤ ما بينَ فذٍّ للنظام وتوءمِ
فبقيتُ ما سارَ الحجيجُ إلى منى واحتلَّ بالبيتِ العتيق وزمزمِ [٢]

فلا تحصى مآثره وشيمه الكريمة المذكورة في كتاب الله، صاحب البلاغة والفصاحة والبيان.

ثالثا: صورة الكريم الجواد .

والحق أن الجود والكرم من صفات الملوك والخلفاء، تغنى بهما الشعراء منذ القدم لإعلاء شأن الممدوح وإظهار مكانته التي يستحقها، وقد صار على هذا الدرب ابن فُركون، فكرر هذه الصفات في أكثر من قصيدة

---

(١) ديوان ابن فركون ، صـ ٣٨٧
(٢) السابق ، صـ ٣٣١

بطرق مختلفة، مستخدما صيغ المبالغة حينا واسم التفضيل حينا آخر، ومن ذلك قوله: (الطويل)

بمولاي قد نلتُ المكارم والعلى فأصبحت في أثوابها أتبختر
هو الناصر المولى الذي جودُ كفهِ من الغيث أندى أو من الشمسِ أشهر
إمام همامٌ خاشعٌ متبتلٌ أغرُّ وهوبٌ واضح البشرِ أزهرُ
يطاول أملاك الزمان إذا انتمى قبيلٌ إلى صحب النبيّ ومعشرُ [1]

جمع ابن فركون بين صفتين متلازمتين: الجود والتقوى، وهما من صفات المؤمنين الصالحين، فناصر دين الله الإمام الهمام أكرم وأجود من الغيث، وأشهر وأعرف من الشمس في ذلك، وكيف لا وهو ذو نسب عريق وأصل تليد، يرجع إلى أصحاب- النبي صلى الله عليه وسلم. ومن صوره الدالة على مدى جود هذا الإنسان وعظيم كرمه الذي عم البلاد وأفاض فيها من خيره، ذاكرا مصرنا الحبيبة ونيلها وعزيزها يوسف عليه السلام، رابطا بينه وبين ممدوحه في الجمال والكرم والشجاعة، مسجلا ما طلبه العدو الإسباني من هدنة ومصالحة فيكُف ويأبى لقدرته وقوته، وفي ذلك يقول: (البسيط)

لم أدرِ ما عم البسيطةَ هل ندى كفيه أم صوبُ الغمامِ الوُكفِ
مصرُ البلادِ أفاض في أرجائها نيل الندى وجلا الجمالَ اليوسفي
وقفٌ عليه الجود يرسل جودهُ فيعمُّ بين توقفٍ وتوكفِ
ولقد تناهى للمكارم جمعهُ فلذاك عن قصادهِ لم تصرفِ
رفتْ ظلال الأمن وانعطفتْ على وطن الجهادِ برأفةٍ وتعطف
بمبددٍ في الحربِ كلَّ مبذّلٍ ومحرم إبقاءَ كلَّ محرفِ

(1) السابق ، صـ ١٥١

تأتي وفودُ الـروم تخطبُ سلمــهُ فيكفُّ كـفَّ القــادر المتعففِ [١]

ومن صور ابن فركون الدالة على مدى إنسانية بطله وعظيم كرمه، والتي يستحق عليها المدح والثناء قوله: (الطويل)

ومدحي على من جادَ قبل سؤالهِ ومـن أركـب الآمـال وهـي ركـوبُ
هو الملك الأعلى الهمام الذي غدا لديــه مجــال العــز وهــو رحيــبُ
فيهمِــي نــداه كلمــا بخــل الحيــا وإن مطــل الإصــباحُ عنــه ينــوب
فتسعف قصــادٌ وتقضـى مــآرب ويمْــــرَعُ مـن رَبـع العفـاة جـديب
ينم من الأمــداح طيب ثنــائه فتنعــم أسمــاع به وقلــوب [٢]

يواصل الشاعر رسم صورة ممدوحه بالهمام، فهي صورة من أروع الصور في الكرم والعطاء والجود قبل السؤال، فهو ملك همام شجاع صاحب عز ورفعة، يُسعف المحتاجين عندما تضن الحياة عليهم. وتتكرر صورة السلطان الجواد المعطاء، حين يقول: (الطويل)

جـوادٌ متـى ضـنَّ الملـوكُ فرفـدهُ جـوادٌ لـهُ خصـلُ السـباقِ إذا ارتمـى
رأى جــودهُ للقاصــدينَ مــؤملًا فأصــبح مغــرًى بالمكــارم مغرمــا
فيروى حديث الجودِ عنهُ مسلسلا وسلسـاله تـروى بـه الأنفـسُ الظَّمـا
لــه شيمٌ أعلتْ معــالم للهــدى بهــا قد أتانــا محكمُ الذكرِ معلما[٣]

---

(١) السابق ، صـ ١٣٠، وفي مظهر النور الباصر، صـ ٥٩-٦٤
(٢) السابق ، صـ ١٥٥
(٣) السابق ، صـ ٢٣٠

يتابع الشاعر سرد الصفات التقليدية التي يغدقها على بطله المغوار، محاولا صياغتها في قالب جديد، فها هو ذا السلطان يوسف صاحب السبق والجود في وقت بخل فيه الملوك، حتى صار جوده حديثا مرويا، يروي به الأنفس المتعطشه، وترتاح من هذه الروايات،كما أن له شيما دينية عليا قد ذكرت في محكم التنزيل. ومن صور السلطان الجواد الكريم قوله: (الكامل)

فُقتَ الملوكَ الأكرمينَ مآثرا فبلغت في شأو العلا أقصى المدى
فلأنت أسماهم وأسناهم إذا طالوا وأنجز في المكارمِ موعدا
وأجلَّهم قدرا وأشرفهم حلا وأعمُّهم رفدا وأنداهم يدا
إن السحاب وإن تتابع جودُها لم تتخذ إلا نوالك موردا [1]

يعقد الشاعر ابن فركون مفاضلة بينه وبين الملوك الكرماء، ويفضله عليهم إذ بلغ ممدوحه شأوا كبيرا في العلا والمجد فهو أسماهم رفعة، وأسناهم ذكرا، معطاء جواد لا يتأخر عن فعل الخيرات، ذو جلال وشرف عظيم، وكثيرا ما يصور ممدوحه بالسحاب بل ويجعله أكثر غيثا وكرما منه. ونطالع صورة أخرى تدلل على جوده وعظيم كرمه، حين يقول: (البسيط)

مولاي لولا جود كفك لم أجد إبداع أمداحي ولا إبداءَها
فإليك وصفًا لم تلحْ شهبُ الدجى إلا وباهى حُسنها وبهاءَها
هذي المناقبُ يستميلُ سماعها قومًا أدارت فيهم صهباءَها[2]
هذي المدائحُ واللُّهى قد أنطقتْ لتروقَ في روضِ النهى وَرْقاءَها[3]

([1]) السابق ، صـ ٢٤٣

([2]) اسْتَمالَ بِشِعْرِهِ قُلُوبَ السَّامِعِينَ : أَمالَها إِلَيْهِ، جَذَبَها. الصهباء : الخمر.

([3]) ديوان ابن فركون ، صـ ٣٧٤

فمن أمدح؟ ومن يستحق المدح إلاك؟ وما ذلك إلا لجودك وكرمك، فأنت ألمع من النجوم البارقة في ظلام الليل، وهذه المناقب والمآثر تعجب السامعين وتؤثر في عقول الشاربين للخمر، ومن صور الجود والكرم قوله: (الطويل)

وقد أنجبُوا من ناصر الدينِ يوسفٍ إماما يفوق السُّحبَ في البذل والعطَا
تــرى نــور مَــرآه وجــود يمينِــهِ إذا البـدرُ حيّـا أو إذا الغيـثُ أفرطَـا
وإن قضت يمناهُ سيفـا قضت بـأن يمدَّ ظلال الأمن فينـــا ويبسُطَا [١]

وقد ربط ابن فركون بين بطله والسحاب حينا في البذل والعطاء، وبينه والبدر في الضياء والجمال أحيانا أخرى. ونطالع صورة أخرى لصورة الكرم والشجاعة والعزيمة، التي تدل على مدى إنسانية بطله ونبله، حين يقول:

أناصــرَ ديــن الهُــدى أشــبهتْ عــزائمُ منــكَ الظبــا فــي المضَــا[٢]
فقمـت بمـا قعـــدَ الـدهرُ عنـهُ وداويـــتَ بـــالجودِ مـــا أمرضـــا
تجــودُ إذا ضــنَّ صــوبُ الحيــا وتُقبـــلُ والــدهر قــد أعرضـــا[٣]
وتُقبلُ عــنَّا دَيــاجِي الخُطــوبِ بكفِّكَ سيفُ الهــدى منتضى [٤]

---

(١) السابق ، صـ ١٨٨

(٢) من أهم صفات ملك الدولة أن تكون لديه عزيمة قوية تشبه **عزيمة الظباء**.

(٣) الصَّوْبُ نزول المطر وبابه قال و الصَّيِّبُ السحاب ذو الصَّوب و صابَهُ المطر أي مُطر، و الحَيَا مقصور المطر والخصب ، الصحاح للجوهري: مادة ص/و/ب – و مادة: ح/ي/ا

(٤) ديوان ابن فركون ، صـ ١٩١

فقد فعل هذا الممدوح الإنسان الكثير من الأفعال القيمة التي عاداه الدهر بها، وداوى بجوده وكرمه ما فعلته الأيام، فيجود إذا بخل الدهر، وأمسك السحاب، وضن المطر. وتدفع عنا ظلمات المواقف والحوادث، ونطالع صورة أخرى تفيض بالجود والشجاعة في قوله: (الطويل)

وقد طلعت شمسُ الصباحِ كأنَّها محيا ابن نصرٍ والبنودُ سحابُها[1]
إمامٌ له حلمٌ وعلم ونائلٌ فقل لعفاة الجودِ أين ذهابها
إذا صال لم يُجد الليوثَ مصالها وإن صاب لم يغنِ الغيوث مصابها[2][3]

جمع الشاعر في صورته هذه بين عدة صفات منها الشجاعة والكرم والحلم، والعلم، إلا أن ثمة معنى عام يهيمن عليها وهو الجود والشجاعة. فممدوحه شمس صافية وإمام صاحب علم وحلم وعطاء، يفوق الليوث في الصولان والجولان، والفتك وإصابة فرائسها. ومن صور الممدوح الإنسان صاحب الهمم والصفات العلا قوله: (الكامل)

أوليس من أوصافكَ الشيمُ التي غدت الملوك بذكرها تَتَباهى
أوليس من أوصافكَ الهممُ التي تبغي النجوم النيرات عُلاها
هذا ويا لله من غرناطةٍ دار نعيدُ على النوى ذِكراها

---

(1) البَنْدُ: العَلَمُ الكبير معروف، فارسي معرّب؛ قال الشاعر: وأَسيافُنَا، تحتَ البُنُودِ، الصَّواعِقُ وفي حديث أَشراط الساعةِ: أَنْ تَغْزو الرومُ فتسير بثمانين بَنْداً؛ البَنْدُ: العَلَمُ الكبير، وجمعه بُنُود وليس له جمعُ أَدْنى عَدَدٍ. والبَنْدُ: كل عَلَم من الأَعلام. وفي المحكم: من أَعلام الروم يكون للقائد، يكون تحت كل عَلَمٍ عشرة آلاف رجل أَو أَقل أَو أَكثر. لسان العرب: مادة: ب/ن/د

(2) ديوان ابن فركون ، صـ ٣٤٠

(3) السابق ، صـ ٣٤٠

لمـا نـأى مـولاي عنهـا أصـبَحت وقــد اســتحالت حالهــا وحُلاهــا
إذ حيث حل الناصر الملك الرّضي نلقى المكــارمُ والعلى والجَـاها [١]

فممدوحه صاحب همم كبرى يتباهى بها الملوك والأمراء، وأوصاف مثلى لا تستطيع النجوم أن تصل إليها، وتتكرر الصفات التي يتحلى بها ممدوحه يوسف الثالث، حين يقول: (الطويل)

عليـكَ بمولانـا الخليفـةِ يوسـفٍ فهاتيــك أوصــافٌ لــه وخلائــق
إمــامٌ لــه علــمٌ وحلــمٌ ونائــلٌ بــه خــاب لاحٍ كلمــا فــاز لاحــقُ
مــآثرُهُ والوصـف يعجــزُ نظمـهُ لئــالٍ بهــا عِقــدُ العُلــى متناســقُ
مكارمــهُ والأفــقُ يمســكُ غيثــهُ تسـيلُ علـى العـافين منهــا مـدافقُ
عزائمه والخيــل تبتــدرُ الــوغى تقصرُ عنهنَّ الجيــادُ السوابقُ [٢]

صورة تجمع بين العلم والحلم والجود، مآثره وصفاته لا تستطيع أن تصفها، فهي شبيهة بالعقد المتناسق. لقد كان الأمير يوسف الثالث ذو ثقافة علمية وأدبية متينة، كما تدل على ذلك كتاباته وأشعاره فلا غرو من الثناء عليه والإشادة بعلمه وحلمه وأعماله القيمة وأفعاله الحسنة، ومن ذلك قوله: (الرجز)

مكــارمُ الأخــلاقِ تقضــي لــهُ أن يبــــذُل العتبــــى ولا يعتُــــبُ
فــالحلم والعلــمُ لــه شيمــةٌ والحــزم والعــــزمُ الــــذي يُرهــبُ
مــآثــر ليست لمــلك مضى هيهـات لا تحـصى ولا تُحسبُ [٣]

---

(١) السابق ، صـ ١٦٩
(٢) ديوان ابن فركون ، صـ ٢٠٨
(٣) السابق ، صـ ١٠٩

ونطالع صورة الإنسان المحسن للآخرين، والهادي إلى أحسن الطرق، حين يقول: (البسيط)

هو الإمامُ الذي إحسانُهُ أبدَا وحسنُهُ سَننٌ هادٍ إلى السُّننِ
فإن شُهب الهُدى لولاهُ ما وضحتْ وإن سبلَ الندى لولاه لم تبنِ
لو كان فيما مضى وضَّاح طلعتهِ ما كان ينسبُ وضاحٌ إلى يمنِ
هذا هو الناصر المولى الهمامُ فدعْ ذكرى أمين ومأمونٍ ومؤتمنِ [1]

إمام همام ظهر الحق على يديه، فقد فاق خلفاء الدولة العباسية في الشجاعة والإقدام، ولا وجه مقارنة بينه وبينهم. ومن صور الإنسان الجواد، قوله: (الطويل)

وناصر دين الله يطلِعُ وجههُ كشمسِ الضحى يُعشي العيونَ طلوعُها
وهل يكتمُ الشمسَ المنيرةَ كاتم وأنوارها في الخافقين تشيعُها
بناصرِ دين اللهِ عز جنابُها فمن طائعُ الأملاكِ أو من مطيعُها
أسلت دمَ العنقود في الله مظهرًا لأفعالِ برٍّ في الوجود تذيعها
لذلك جاد الغيثُ منها أباطحًا بها زهرُ أزهار جلاها ربيعُها [2]

فها هو ذا السلطان يوسف ناصر دين الله مشرق الوجه كشمس الضحى الواضحة التي لا يخفت نورها، حريص على أفعال البر والجود . وتتكرر صورة الممدوح الإنسان صاحب الحلم والعلم، والحزم والإقدام، كما في قوله : (الطويل)

([1]) السابق ، صـ ٢٧٣

([2]) ديوان ابن فركون ، صـ ١٢١

إمــامٌ لــه حلــمٌ وعلــمٌ ونائــلٌ وحـــزمٌ وإقـــدامٌ ومجـــدٌ مؤثـــلُ
إذا أعمــلَ القصــادُ نحــوَ جنابــه ركـــائبهم أعمالُهـــم تُتقبَّـــلُ
يجود غمامُ الجــود من أفقِ كفــهِ فيفضحُ صوبَ العادياتِ ويخجلُ[١] [٢]

وهي صور تقليدية قديمة، تغنى بها الشعراء القدماء قبله فلا أثر للبيئة الأندلسية فيها. وكثيرا ما استغل الشعراء المدَّاحون اسم أبطالهم المسمون بيوسف، وإقرانهم إياه بسيدنا يوسف عليه السلام، في العز والجمال، وقد صار على دربهم ابن فركون، فهو ملك عزيز محسن هادي إلى سبيل النجاة، ومن ذلك صورة الخليفة العزيز فيقول: (الكامل)

هــل يوســفٌ إلا كيوســفَ عــزةً ومحاســنا تُهــدي النجــومُ رواءهــا
تهــدي وتُهــدِى العــز شــيمتهُ التــي أبــدتْ ســناها للــورى وســناءها
ما استقبلتْ شتى الوفــودِ جنــابــهُ إلا وقابــلَ بالقبــول هنــاءهــا [٣]

يصور الشاعر ممدوحه بالعز والرفعة، والحسن، ويشبهه بسيدنا –يوسف عليه السلام– ويقرن ممدوحه بحسن وجمال سيدنا يوسف –عليه السلام– في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله: (الطويل)

لــه كيــف شــاءَته المكــارمُ والعــلا مــآثرُ فــي الأمـــلاكِ عــزَّ مثيلــها
حكى يوسفٌ في الحسنِ والملك يوسفًا فغرناطةٌ مصرٌ وجدواهُ نيلــهَا [٤]

---

(١): صوب: الصَّوْبُ: نُزُولُ الْمَطَرِ. صَابَ الْمَطَرُ صَوْبًا، وَانْصَابَ: كلَاهُمَا انْصَبَّ. وَمَطَرٌ صَوْبٌ وَصَيِّبٌ وَصَيُّوبٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: أَو كَصَيِّبٍ من السماءِ " لسان العرب مادة: ص/و/ب.

(٢) ديوان ابن فركون ، صـ ١٧٣

(٣) السابق ، صـ ٣٧٣

(٤) ديوان ابن فركون ، صـ ٢٢١

ونطالع صورة هذا الممدوح من خلال عدة صفات مجتمعة، حين يقول: (الطويل)

إمـــام حبـــاه الله بالملـــك بعـــدما تخيـــره مـــن دوحـــة النصـــرِ وانتقـــى
لـــه الحـــزم والإقـــدام والشـــيم العـــلا وبـــذلُ النـــدى والحلـــمُ والعلـــمُ والتقـــى
لـــه عزمـــةٌ تـــدني القصـــيَّ وهمـــةٌ تناهـــت إلـــى أعلـــى الكواكـــب مرتقـــى
محيـــــاهُ يحكي البدر ليلـــة تمِّـــه ويمنـــــاهُ تحكي العارضَ المتدفـقَا [1]

ونلحظ تكرار صفات ممدوحه وشيمه في أكثر من صورة فهذه الأبيات تضم معان وصفات متعددة كالحلم والعلم والعزم والحزم، ثم يشرك صورته بين الفضائل الخُلقية السابقة والخِلقية من نور وجهه وإشراق جبينه. فهو يشبه البدر في تمامه ويده اليمنى تشبه الشيء المتدفق الكثير الذي لا ينقطع. ومن هذا القبيل قوله: (الكامل)

هو ناصـر الـدين الخليفـة يوسفٌ ملـك غـدا كهـف الملـوك ثمالهـا[2]
ملـك كـأن الشـمس غـرة وجهـه تهـدي إلـى سـبلِ الهـدى ضـلالها
ملك كـــأن الغيث جـود يمينـــهِ مهما أنال القـــاصدين نوالهـــا [3]

([1]) السابق ، صـ ٢٠١

([2]) ثمالها: الملجأ والغياث . قال أبو منصور : معناه أن يكون ثمالا لهم أي : غياثا وقواما يفزعون إليه . والثمل : المقام والخفض ، يقال : ثمل فلان فما يبرح . واختار فلان دار الثمل أي : دار الخفض والمقام . والثمال – بالكسر – : الغياث . وفلان ثمال بني فلان أي : عمادهم ، وغياث لهم يقوم بأمرهم ؛ قال الحطيئة :

فدى لابن حصن ما أريح فإنه ثمال اليتامى عصمة في المهالك

وقال اللحياني : ثمال اليتامى غياثهم . وثملهم ثملا : أطعمهم وسقاهم وقام بأمرهم ؛ وقال أبو طالب يمدح سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل.

لسان العرب، مادة ث/م/ل.

([3]) ديوان ابن فركون ، صـ ١١٦

جمع الشاعر ابن فركون في رسم صورة ممدوحه بين إشراق وجهه، الذي يهدي إلى الطريق المستقيم، وجوده الكثير الذي يشبه الغيث المحمل بالخيرات.

وبذلك كانت صورة الممدوح الإنسان التقي الكريم والحسيب النسيب الذي تأمله الإمارات والبلدان الأخرى، وقد خلع الشاعر علي ممدوحه صفات الجود والكرم والتقوى والورع وما ينبثق عنهما من رحمة وعطف على المحتاجين.

المطلب الثاني: الممدوح القائد.

أولا: الشجاع الهمام.

ثانيا: السياسي الفطن.

ثالثا: الفاتح المجاهد.

أولا: صورة الشجاع (الهمام)

من الفضائل النفسية التي تغنى بها الشعراء قديما وحديثا صفتي الشجاعة والجود، يقول قُدامة بن جعفر: "لما كانت فضائل النّاس من حيث إنّهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتّفاق في ذلك إنّما هي: الَعقل والشَجاعة والَعدل والعفّة،كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مُصيباً والمادح بغيرها مُخطِئاً "(١) فقدامة كما ترى يَضعُ أمام المدح دائرةً ضيقةً تتضمنُ الفضائل النّفسيّة فقط، وهي: العقل والشجاعة والعدل والعفّة، لكن ابن رشيق القيرواني لا يُوافقه، فيقول : "وأكثر ما يُعوّل على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة، فَإن أُضيفَ إليها فضائل عرضية أوجسمية كالجمال والأُبّهة وبسطة الخُلق وسعة الدنيا وكثرة العَشيرة كان ذلك جيّداً . إلاّ أنّ قُدامة قد أبى منه وأنكره جُملةً وليس ذلك صوابا، وإنّما الواجب عليه أن يقول: إنّ المدح بالفضائل النفسيّة أشرف وأصحّ، فأمّا إنكار ما سواها كرّةً واحدةً فما أظُنُّ أَحداً يُساعده فيه ويوافقه عليه"(٢) وقد حرص ابن فركون على منح هذه الصفات جميعها لممدوحه لما يتمتع ويتصف بها، فمن صور الشجاعة قوله: (الكامل)

(١) نقد الشعر، قدامة جعفر،تحقيق محمدعيسى ممنون، سنة ١٩٣٤م، ص : ٣٩

(٢) العمدة، إبن رشيق القيرواني، تحقيق محمدمحي الدين، مطبعة مجازي، سنة ١٩٣٤ م. ج: ٢، ص: ١٢٩

من ذا يضاهي في المكارم أسرةً في الذكر قد ذكر الإلاه خلالها
قومٌ إذا لبسوا الدروع حسبتَهُم أسدًا حمت في غيلها أشبالَها
وتهزهم أمداحُهم فكأنما جال النسيم بدوحةٍ فأمَالها [1]

وكثيرا ما يجمع الشاعر بين صفتين متلازمتين في ممدوحه وهي الشجاعة والكرم، فهو ينتمي إلى أسرة لها من المحامد ما أشاد الله بها في كتابه العزيز. ومن صورة الخليفة الهمام : (الطويل)

هو الملك الأعلى الهمام الذي به تجلت من الدهر الخطوب الفوادح[2]
وهل يوسف إلا إمام مؤيّد له تخضع الصيد الملوك الجحاجح[3]
وهل يوسف إلا إمامٌ لعزمه تلين صروف الخطب وهي جوامح
تواضع لله العظيم وقدرهُ لهُ فوق آفاق النُجومِ مطامحُ [4]

فيوسف يجمع بين صفات عدة أهمها الشجاعة والكرم، ويكرر اسمه للاستئناس به، ويمتد الشاعر بالأبيات ليصور شجاعته في الفتوحات، وفضله وعفوه في الملمات، يقول: (الطويل)

ستغزو الأعادي والبروقُ صوارمٌ يحفُّ بها للشهبِ رام ورامحُ
وتملك أرض الله غربًا ومشرقا وهل مانعٌ من ذاك واللهُ مانح
حسامكَ مسلولٌ وسهمك صائب وجندكَ منصورٌ وسعدك فاتح

([1]) السابق ، صـ ١١٧
([2]) الهمام : السيد الشجاع الكريم .
([3]) الجحجح : السيد السمح ، لسان العرب مادة جحجح.
([4]) السابق ، صـ ١١١

ورفـدكَ ممنـوحٌ وعفـوكَ شـاملٌ وبِشـركَ مبـذولٌ وفضـلك واضـح
وها أنا يا مـولاي قصدي مبلَّـغٌ بما كنتُ أرجـوه وتجري رابـحُ [١]

وكثيرا ما يمزج الشاعر بين الشجاعة والجود في تصوير ممدوحه، حتى لا يكاد باستطاعته الفصل بينهما، وكيف لا وهما صفتان متلازمتان في معظم الشجعان والأبطال، ومن ذلك قوله: (الطويل)

وكفـك للعـافين تنـدى غمامـةً وسـيفُك يـذكي جاحمـا متأججَـا
كـذلك مـن شـأن الغمـام انسـكابها إذا مـا تريـك البـارق المتوهجَـا
كأن مثـارَ النقـع ليل وفجـرُهُ حسامك يبدو خاضـبا متضرجـَا [٢]

جمع الشاعر في صورته بين صفتي الكرم والشجاعة ، ومن حيث أهمية الصور فإن الشجاعة والكرم كانتا من الصور الأكثر حضورا في صوره المدحية. ومن صوره الدالة على شجاعة السلطان يوسف تصوير خيله المدربة القوية وهي تسابق الرياح، فيقول: (الطويل)

وأرسلتَ فيـه الخيـل قـودًا سـوابغا يُسـكن مرتـاعَ القلـوب اضـطرابُها
هـي المرسلاتُ الغر لـولا انقيادها لصـحَّ إلـى الـريحِ العقـيمِ انتسـابُها
طلائـع شـهبٍ قـد حكـين طوالعـا من الشُّهب فـي أفق العجاج ارتقابُها
فتفرجُ عنهـا الحـربُ شهبـا منيرةً إذا كـان بالنقعِ المثارِ احتجـابُها [٣]

---

(١) ديوان ابن فركون ، صـ ١١١
(٢) السابق ، ص١٩٤.
(٣) السابق ، صـ ٣٤٣

وتتكرر صور الممدوح الممزوجة بين الشجاعة والكرم، فها هو ذا السلطان (يوسف) همام ومقدام في خوض الحروب، وهَّاب وجواد للأموال ، يقول: (الطويل)

همام يزيرُ الحربَ أسرًا زئيرها دليلٌ على النصرِ المؤزر قاطعُ
على الروعِ مقدامٌ وفي الوعدِ صادقٌ وللمالِ وهابٌ وبالحقِ صادعُ
فجدٌ لصدر الدين شافٍ وشارحٍ وجودٌ لأبوابِ المكارمِ شارعُ [1]

ومن صور ممدوحة المغوار ما نراها حين يرسم صورته بين جنوده كالقمر يتوسط بقية الكواكب، يقول في ذلك: (الطويل)

كأنَّ نجومَ الأفق جيش محلَّأ تواريهِ في نهرِ النهارِ ووردهُ
كأنَّ طُلوع البدرِ عند تمامهِ محيّا ابن نصرٍ والكواكبَ جنْدُهُ[2]
كأنَّ الضحى وجه الخليفةِ يوسف وما احمر فيه من سنا الفجر بنده
كأنَّ سنا الأفقِ المورَّدِ سيفهُ وقد راق من تحتِ النجيعِ فرندهُ [3] [4]

فجمال السلطان يوسف الثالث يفوق بقية الملوك ، ففضله كفضل البدر على سائر الكواكب، في النور والإشراق، والجمال والسيطرة، ويرسم صورته بين جنوده كالقمر وبقية الكواكب، مشرق وجهه كالضحى في احمراره، وقد شبه حمرة وجهه بحمرة الفجر الشبيهة بالأعلام الكبيرة. ونطالع صورة أخرى

---

(1) السابق ، صـ ٣٧٧

(2) أَشْرَقَتِ ابْتِسَامَةٌ عَلَى مُحَيَّاهُ: عَلَى وَجْهِهِ. لسان العرب مادة: ح/ ي/ ي.

(3) بنده : العلم الكبير، لسان العرب: مادة: بند .

(4) ديوان ابن فركون ، صـ ١٣٤

يصور فيها فضل بطله في العطاء والظهور وسيطرته على بقية الملوك، حين يقول: (الكامل)

لا زلــتَ شمسًــا والملــوك كواكــبٌ يبــدي ظهــورك للوجــودِ خفاءَهــا
والخلـق فــي دعــةٍ وعـزكَ صــارفٌ ماشاء صرفُ الدَّهر مما ساءَها[1]
تدعو لنصركَ من قضتْ أحكامــهُ كرما وفضلا أن يجيبَ دعاءَها [2]

فهذه الصورة تبين فضل ممدوحه على بقية الملوك كفضل الشمس المشرقة التي تطغى على بقية الكواكب في الظهور، فضلا عن كونه ذو عز وقدرة ومنعة، تصوير رائع لشاعر حضري عاش في البلاط الغرناطي، متأثرا في ذلك بشاعر حضري كالنابغة الذبياني الذي عاش في بلاط المناذرة.

(١) دعة: أي رغد العيش.
(٢) السابق ، صـ ٣٧٤

ثانيا: صورة السياسي الفطن.

لا شك أن صفة الخلافة والأمور السياسية الجيدة من صفات الخلفاء المهرة، والملوك الفطنة، وهي أمور أحق بالإشادة والثناء، فهذا الخليفة هو القادر على حماية بلدانه، لديه الكثير من خبرات الحروب ودراية المعارك والغارات ، وفي ذلك يقول: (الطويل)

دريٌّ بغاراتِ الحروبِ مثاقفٌ عليمٌ بأسرارِ الخلافةِ ماهرُ
يقوم بأعباء السرى وهوَ قاعدٌ يغادي يقيمُ صغا الهيجاء وهو مسافرُ
العدى في ملتقى الحرب بالتي إذا دهمت ما منهم من تغادرُ
ألم يعلموا أنَّ الخليفةَ يوسفا مناقبه شُهبَ السماء تُكاثر
ألم يعلموا أنَّ ابن نصرٍ حسامهُ عن الروع لا وانٍ ولا متقاصرُ
إذا حارب ارتاعتْ لذابله العدى وإن سالم ارتاحتْ إليه المنابرُ[1]

فها هو ذا البطل القائد ذو خبرة ودراية بغارات ومغامرات الحروب، وصاحب علم ودراسة بأمور السياسة والخلافة، يقوم بإدارة أفعاله مقيما كان أو مسافرا، يداهم ويقتحم حصون الأعداء، فلا يغادر منهم أحدا، فضلا عن مناقبه الكثيرة التي تكاثر شهب السماء، وسيفه الذي لا يقصر في المواقف الجادة. ونطالع صورة أخرى للسلطان القائد تجمع بين عدة شيم وصفات، من سيطرته على مقاليد الأمور، إضافةً إلى حلمه وعلمه، وحزمه وعزمه، وجوده وبشره، وعزه وتواضعه، وفي ذلك يقول: (الطويل)

([1]) السابق ، صـ ١٩٩

ألم يدرِ أن الناصرَ الملكَ الرّضَى ... إذا قال فالمِقدارُ ما شاء يفعَلُ
له شيمٌ في الحلم والعلمِ والندى ... يفوق بها كلَّ الملوك ويفْضُلُ
فحزمٌ كليثِ الغابِ يحمي ذمارَه ... وعزم كما قد هُزّ في الروعِ مُنْصلُ
وجودٌ كما جادتْ لدى المحْلِ ديمةٌ ... وبشرٌ كما حيَّا الضُّحى المتهلّلُ[1]
تواضعَ فاستعلى بصدقٍ يقينه ... وعزّ فذلَّ الماكرُ المتحيَّلُ [2]

جمع الشاعر بين عدة صور رائعة اتصف بها ممدوحه يوسف الثالث، فهو ملك أوامرة مطاعة، يفوق كل الملوك في الحلم والعلم، وشديد حازم كليث الغاب الذي يحمي عرينه، وعزم كالسيف القاطع ، وجواد كالمطر المنهطل في هدوء ورفق دون رعد وبرق، تشبيه رائع، ومشرق إشراق الضحى الواضح، متواضع في يقين وثبات، عزيز ذل كل ماكر متربص صاحب حيلٍ كثيرة . ونطالع صورة أخرى تظهر مدى سيطرته وحنكته في إدارة مقاليد الحكم، حيث يقول: (الكامل)

هذي الخلافةُ قد ملكتَ قيادها ... وأجلتَ في طلقِ السعودِ جيادَها
هذي ملائكةُ السماءِ تنزلتْ ... بالنصر تنجدُ في الوغى أجنادَها
هذي البشائرُ قد رفعتَ لواءَها ... وأقمتَ بالصنعِ الجميلِ عمادَها
هذي العزائمُ كلَّما أعملتَها ... أبعدت في شأوِ العلى آمادَها
هذي الكواكبُ تستقلُ سعودُها ... لك حيثُ تُطلعُ للعدى أضدادَها[3]

---

(1) الديمة : ديم الديمة المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق أقله ثلث النهار أو ثلث الليل وأكثره ما بلغ من العدة والجمع ديم . لسان العرب: مادة د/ي/م .

(2) ديوان ابن فركون ، صـ ١٧٢

(3) السابق ، صـ ٢٢٥

خليفة موفق في إدارت شئون ملكه، موفق من قبل الله تعالى يمده بملائكة من السماء لنصرة جنوده الضعفاء في الحروب، ورافع لواء النصر، بعزائمه وصنعه الجميل. ويمتد الشاعر بالأبيات ليبين مدى حنكة هذا الملك الهمام، في إخماد نار الفتن ليقول:

كم فتنةٍ أخمدتها من بعد أن قد كان أوقدها الضلال وقادها
هذا الهمامُ العادلُ الأرضَى الذي قاد الجيوشَ إلى العدى فاقتادها
مدتْ بأملاك السماءِ جنودها ظلَّ الأمان فواصلتْ إمدادها
لكأنَّ بأنصار الهدى قد زلزلتْ أرض العداةِ وضعضعتْ أطوادها[1]

ومن صور الخليفة المسيطر على ملكه قوله : (الوافر)

لقد فاق الملوكَ نـدًى وعلما فلا ملكٌ يروم له عنادا [2]
لنصرة ملكه الأعلى تجلتْ ملائكُ ترتقي السبع الشدادا [3]

إمام جواد كريم، صاحب علم وملك عظيم، مؤيد ومنصور من قبل ملائكة الرحمن، ومن صور الخليفة العادل الجواد قوله: (الطويل)

فيا ملك الدنيا بعدلك شيدتْ من الدين أعلامٌ وقامت مصانعُ
مقامك محمودٌ وعدلكَ شامل وظلك ممدودٌ وجهدُك ذائع
وحزبك منصور وعزُّكَ قاهرٌ وجودك مبذولٌ وحلمكَ واسع

(1) السابق ، صـ ٢٢٦
(٢) النَّدَى هو : الجُود والسخاءُ والخير .
(٣) السابق ، صـ ١١٣-١١٤

وكفــك بحــرٌ والخــلائفُ ترتجــي نداها فطـــامٍ بالنــوال وطامــعُ[١][٢]

أقام الدنيا وشيَّد بلدانا بعدله وقسطه، صاحب المقام المحمود والظل الممدود والجهد المعروف، والحزب المنصور ، ويختم ابن فُركون هذه الصفات والشيم الحميدة لهذا الممدوح العظيم بصفة الكرم والعطاء مشبها كفه بالبحر الذي يأمل الكل الاغتراف منه.

(١) نَدَا الرَّجُلُ بِمَالِهِ : أي جَادَ .

(٢) السابق ، صـ ٣٧٧

ثالثًا: صورة الفاتح المجاهد

من الصفات الإسلامية الجديدة التي منحها شعراء الإسلام لممدوحيهم، صفة الفاتح والمجاهد ، والمدافع عن دين الله وناصره، ومن ذلك قوله: (الطويل)

هو النصرُ قد أجرى لديكَ جيادَه هو الفتحُ قد ألقى إليكَ قيادهُ
أما هذه بكرُ الفتوحِ التي بها أتى الدهرُ يدني العزّ منك بِعادَهُ
وسيفكَ سيف الله إذ حل ربعها أباح به جمع العدى وأباده [1]

ومن فتوحاته أنه فتح صخرة عناد، شمالي الأندلس، فهو ملك واثق من نصره موقن من فتحهِ، قادر على إبادة أعدائه بسيفه المميت المؤيد من الله تعالى. ومن صوره أيضا عندما قام بفتح (فارس الجديد) من أعمال طنجة، فهنأ السلطان يوسف بهذا الفتح العظيم، والصنع الجميل، الذي يباهي به كواكب السماء اللامعة، فهو أمر جلل لاتستطيع أن تصفه أي عبارة، فيقول: (الخفيف)

ناصر الدين خذ إليك بشارهْ قد كستها الفتوح أبدع شارهْ
تُجتلى في البلاد غربا وشرقا فتباهي الكواكب السياره
فتهنأ صنعا جميلا وفتحا يحتلي كلّ مسمعٍ أخباره
جلَّ وصفا وطار في الخلق ذكرا قصرتْ عن مداهُ كلُّ عباره[2]

(1) ديوان ابن فركون ، صـ ١٥٧
(2) السابق ، صـ ١٦٦

صورة الممدوح القائد الفاتح، وقد فتح السلطان يوسف مدينة طنجة التابعة للمغرب، فخذ هذه البشرى لتهنئ بها النجوم النيرة في أقصى السماء، لهذا الحدث العظيم الذي لا تستطيع العبارات أن تصفها، ومن ذلك أيضا قوله: (الكامل)

هــذا الجهــاد وإنَّ مثلــك يقتــدي فيـــه بآثـــار النبـــيّ المرســـلِ
هـذا الهـدى قـد لاح نـور صـباحهِ يهـدي سـبيل الرشـد كـلَّ مضـللِ
هذي الفتـــوح تَجِلُّ عن إخفائِـــها فالحـــال ناطقـــةٌ بشرحِ المجمـــلِ
فانهض لمـا قد شئت غير مدافـــعٍ تفتحْ بسعدك كلّ بـــاب مقفـــل[1]

فممدوحه بطل وفاتح فتوحات كبيرة، غير مدافع وإنما فاتح منتصر فالحال ظاهر وواضح بكل هذه الفتوحات مقتدي بآثار النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– ومن هذا القبيل قوله: (الطويل)

فلله أعـــلام الجهـــاد كأنهـــا سحابٌ وشمسُ الأفق طلعتك الغرَّا
ســتنهض للغــارات خــيلا مغيــرةً تطيل ارتياحا وهي ما قاربت خمرا
وما ذاك إلا حيث أنت ممــلك قواعدها طوعــا وكفارها قهـــرا[2]

فهو مسيطر قادر على قهر أعدائه، رافع رايات وأعلام الجهاد محلقة في سماء المعركة يعقبها خيلا مدربة على الإغارة والكر والفر، وما ذاك إلا لكونه مسيطرا على زمام الأمور قادرا على قهر أعدائه. ومن صوره التي تدل على بطولة ممدوحه قوله يصف بعض معاركه فيقول: **(الكامل)**

([1]) ديوان ابن فركون ، صـ ١٩٦
([2]) السابق ، صـ ١٣

لما التقى الجمعانِ في أرضِ العدى ورميتَ جمعهم ببأس معجلِ
نادى بأبطالِ الجهادِ ألا اقدموا وأجالَ فيهم نظرة المتأملِ
فتسارعوا إلى داعى الهدى والرومُ عن سبل النجاة بمعزلِ
ضاقتْ عليهم أرضهم فتوقفوا والماءُ يجمع نفسه في الجدولِ
وتجمعت فرق العدا ثم انثنت ما بين منهزمٍ وبين مجدلِ [1]

وتتجلى مقدرة هذا البطل القائد في تصويره لهذه المعركة وما دار فيها بطريقة قصصية رائعة، وقد نادى في القوم وحثهم على الإقدام، فما كان منهم إلا بالإسراع لرفع راية الإسلام، ومحاصرة الأعداء، المنهزمين منهم والموثقين.

والغرض من هذه الصورة إظهار فضل الممدوح، وإعطائه صفة التميز عن باقي الملوك، ولا يتحقق هذا الثناء إلا بفتح أو نجدة المستغيثين.

ومن صور الفاتح والمجاهد قوله يصور بعض سفنه البحرية: (الطويل)

وأرسلتَ في البحرِ الأساطيلَ نزعًا تراوحُ أقطار العدى وتُباكرُ
يراوغ بعضٌ بعضها متلاعبا كما لعبتْ وسْط الفلاةِ جآزرُ [2]
وقد جللوها بالسوادِ كأنما مجادفُها هدبٌ وهنَّ نواظرُ
ويطفو حباب الماء في جنباتها كما فتحت وسطَ الرياض الأزاهرُ [3]

(1) السابق ، صـ ١٩٧
(2) جآزر: البقر الوحشي.
(3) السابق ، صـ ١٩٩

فقد صور سفن ممدوحه البحرية وهي تلعب وسط الأمواج كما لعبت وسط الفلاة البقر الوحشي، وهذا يدل على سرعتها وحركتها السهلة، قادرة على الكر والفر والمراوحة والمباكرة، ثم يختم صورته بتشبيهه لزبد البحر الأبيض، الذي يطفو على سطح الأمواج بالأزهار التي تفتحت وسط الرياض. ومن ذلك أيضا يصور براعة هذا القائد المجاهد في غزوه للأعداء، حيث يقول: (الكامل)

هـذي خلافـةُ ناصـر الـدين الـذي يغــزو وأمــلاك الســماء جنودهَــا
ولسـوف يُبـذل فـي جهـادِ عـداتها طــوع المكــارم والعلــى مجهودهَــا
ولسـوف يُلفَـى كـل بـاغٍ مسـرفٍ يصلى بنار الحــرب وهْوَ وقودهــَا
لكــأن بــه والحــرب توقــد للعــدى نـــارًا بمنهـــلُّ النجيـــعِ خمودهَـــا
لكــأن بـــه يغــزو كتــائبهم وقــدْ جالـتْ جيـادُ النصـرِ كيـف يريـدهَا
لكأن به والـــروم عنـــد لقائـــه لـم يغن عنها عدُّهــا وعديدهــَا[1]

تذكر المصادر أن الخليفة يوسف الثالث كان "فارسا نبيلاً، مولعا بركوب الخيل والقنص، وكان سياسيا ماهراً، يميل إلى الرفق بالرعية، ويأخذ العفو والصفح، وكان مثلا فريدا بالبر بأخويه وأقاربه"[2] لذا صوره قائدا فاتحا، كما في قوله: (الطويل)

(1) السابق ، صـ ٢١٧-٢١٨
(2) ديوان ابن فركون، صـ ٣٨

فيا ناصر الإسلام والملك الذي يعم نداه القاصدين وجودهُ
كأن بوليّ الكفر قد خاب سعيهُ وقدّت هواديه وقيدّ شرُودهُ[1]
بك استنصر الدين الحنيف فأصبحتْ تجددُ عهدا بالجهادِ جنودهُ [2]

فلا شك في كون هذا الملك المجاهد هازم الكفار ومقيد هروبهم، فهو ناصر دين الله تعالى مرة بعد مرة، ليس ذلك بغريب أو جديد، وتعد هذه الصورة من أشرف صور ممدوحه القائد.

وقد قلت صوره المتصفة بالعدل لأن العدل من صفات القضاة وليس الملوك والخلفاء. أما الذكاء والفطنة وحسن إدارت الحروب والأزمات فهي من صفات الملوك والقادة المتمرسين، وبذلك وفق الشاعر في منح الصفات التي يستحقها ممدوحه القائد والتي تتناسب مع سلطته، وبذلك تعد هذه الصور بمثابة سجل لوقائع هذا العصر خلد مآثر هذا القائد البطل والسلطان الناصري، وحسب ابن فركون فخرا أنه استطاع أن يخلد بطولات هذا القائد الإسلامي حينذاك، ويصور ما اعتراه من شدة ورخاء.

(1) وشَرَدَ الرجلُ شُروداً: ذهب مَطْرُوداً. وأَشْرَدَه وشَرَّدَه: طَرَدَه. لسان العرب مادة ش/ر/د.

(2) ديوان ابن فركون ، صـ ١٤٢

المبحث الثاني

ملامح فنية لعرض صورة الممدوح في شعر ابن فركون .

المطلب الأول

المعجم الشعري .

أولا: الألفاظ الموروثة.

ثانيا: تقنية التكرار.

المعجم الشعري :

لكل شاعر ألفاظ معينة تعينه في التعبير عن أفكاره وعواطفه، وكلما كانت ألفاظه سهلة المخرج بعيدة عن التنافر كلما كان شعره مقبولا مستحسنا لدى المتلقين. "ويقصد بالمعجم الشعري، تلك الألفاظ التي لها أهميتها البالغة في بناء القصيدة، في وسيلة الشاعر لنقل تجربته إلى المتلقين، كما أن هذه الألفاظ ليست مجرد مصطلحات منطقية لنقل الأفكار، لكنها في الشعر أرواح تختزن في داخلها الشاعر وإحساساته، وهي قادرة على منح دلالات فاعليات خاصة" [١] وعلى الشاعر أن يتخير الألفاظ المناسبة للمقام الذي يبغيه، وملائمتة للموضوع الذي يشرع فيه، والمطالع لشعر ابن فركون يجد أنه نوع بين مفرداته المختلفة مما يدل على مدى ثقافته واطلاعه على كثير من المعارف والعلوم المختلفة. والقارئ لديوان ابن فركون يطالع بعض الألفاظ الغريبة في شعره مثل قوله :

كأن الضحى وجه الخليفةِ يُوسُفٍ وما احْمر فيه من سَنَا الفَجرِ بَندُهُ
كأن سَنَا الأُفْقِ المورِدِ سيفُه وقد راق من تحت النَجِيعِ فَرِنْدُهُ[٢]

كلفظة(بندهُ – وفرنده) وهي أسماء فارسية دخلت اللغة العربية في العصر الأندلسي، وقد نجد ألفاظا عربية تعتريها الغموض وما ذلك إلا "لامتداد الزمن بيننا وبينه، فقد سقطت ألفاظ من الإستعمال مع الأيام، ومع ذلك فإن

---

(١) قضايا النقد الأدبي المعاصر، د/ محمد زكي عشماوي، صـ ٢٤١، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية، سنة ١٩٧٥م.

(٢) ديوان ابن فُركون ، صـ ١٣٤

السمة العامة لشعره هي وضوح مفرداته، وهذه سمة يشترك فيها مع شعراء عصره"[١]

أولا: الألفاظ الموروثة:

وقد استخدم الشاعر بعض الألفاظ الموروثة من المعجم اللغوي القديم متأثرا بشعراء المشرق البارزين، فكان يجاريهم في الألفاظ والصور والمعاني، فقد استفاد من صورهم واستعاراتهم ووظفها في شعره ، فقد تأثر بالنابغة الذبياني في مدحه للنعمان بن المنذر حين قال :

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ [٢]

وفي ذلك يقول ابن فركون :

لازِلْتَ شمسا والمُلوكُ كواكبُ يُبدي ظهورك للوجودِ خفائِها [٣]

ويقول في موضع آخر :

كأن طُلوعَ البَدرِ عِند تَمامِهِ مُحَياً بن نَصْرٍ والكَواكِبُ جُندُهُ[٤]

وصورة ابن فركون هذه أقوى في الدلالة من صورة النابغة الذبياني، إذ تدل (لا زال) على الاستمرار والديمومة في الماضي والحاضر، فهو شمس منذ زمن مضى ولازال كذلك وبقية الملوك كواكب تختفي في وضح النهار

---

(١) الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري موضوعاته وخصائصه، د/ قاسم الحسيني، الدار العالمية للكتاب– الدار البيضاء –بيروت ط١، سنة ١٩٨٦م. صـ٣٩٠

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرف ، القاهرة، صـ ٧٣.

(٣) ديوان ابن فركون صـ ٣٧٤

(٤) ديوان ابن فركون صـ ١٣٤

وإشراق شمسها. وصورة النابغة احتاجت لتأكيدها بإنَّ، والتأكيد يأتي لمن يشك في كونه ملك، لذا كانت صورة ابن فركون أبلغ في التصوير.

وقد تأثر أيضا بالمتنبي ، ومن ذلك قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جَفنِ الرّدى وهو نائم[١]

تأثر به ابن فركون في تصويره ليوسف الثالث في قوله:

بقيتُ لأمثالـــهِ سالمًـــا وجَفنُ الرّدى عنك قد أُغمِضا [٢]

وقد تأثر أيضا ببشار بن برد في أكثر من موضع ومن ذلك قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم وأسيافَنَا ليلٌ تهاوي كواكبـــه [٣]

ويقول ابن فركون :

عَواليهِ في النقع المثارِ تخالُهـــا كواكِبَ تَبدو للدُجُنـــةِ في جَنحِ [٤]

وقد تفوق بشار في تصويره المركب على من أتو بعده، وقوله أيضا:

كأن مثـــارَ النقع ليل وفجـــرُهُ حسامك يبدو خاضـــبا متضرجـــا [٥]

---

(١) ديوان المتنبي، لأحمد بن الحسين الكوفي أبو الطيب المتنبي (المتوفى: ٣٥٤هـ) ج١/١٣٢، المكتبة الشاملة المكية

(٢) ديوان ابن فركون، صـ ١٩٢

(٣) ديوان بشار بن برد ، حسين حموي، لبنان بيروت، دار الجيل، ط ١،سنة ١٩٩٦م، ج ١/ صـ٢٦٤.

(٤) ديوان ابن فركون صـ ١٨٢

(٥) ديوان ابن فركون، ص١٩٤.

فقد تأثر ابن فُركون بكثير من شعراء المشارقة أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري والمعري وسار على دربهم واقتفى أثرهم. فنجد تأثره ببعض ألفاظ المعري في قوله:

ألا في سبيلِ المَجْدِ ما أنا فاعل عَفافٌ وإقْدامٌ وحَزْمٌ ونائِل[١]

فقد تأثر به ابن فُركون حين قال:

إمـــامٌ له حلم وعلمٌ ونائـلٌ وحــزمٌ وإقدامٌ ومجدٌ مؤثـــلُ [٢]

وحين يقول:

ألا في سبيل الله ما لقيتهُ من تألمهـــا نفسٌ جزيلُ ثوابهـــا[٣]

وقد تأثر بابن مشرف في لفظة (الإمام الهمام) حين قال:

أمام همـــام باسل باذخ العـــلا له بسطتا فضل وفصل على العدى[٤]

هو الملك الأعلى الهمام الذي به تجلت من الدهر الخطوب الفوادح[٥][٦]

وقد تأثر بشعراء سابقين في قوله:

آبـــاؤه النفـــر الغـــر الذين لهـم مـآثر عظمتها العجـــم والعـــرب [٧]

---

(١) ديوان سقط الزند ، لأبي العلاء المعري ، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٨م، صـ ٢٢٧

(٢) ديوان ابن فركون ، صـ ١٧٣

(٣) ديوان ابن فركون ، صـ ٣٤٢

(٤) ديوان ابن مشرف، احمد بن علي بن حسين بن مشرف ، ت : ١٢٨٥ هـ ، صـ ١١٣، المكتبة الشاملة المكية.

(٥) الهمام : السيد الشجاع الكريم .

(٦) ديوان ابن فركون ، صـ ١١١

(٧) السابق ، صـ ١٤٨

وقد سبقه مهيار الديلمي، حين يقول:

من النفر الغرّ الذين ببأسهم ونعمائهم تلقى الخطوبُ الفوادحُ[١]

وقد تأثر بابن نباته المصري في قوله:

والذي كفُّه من الغيث أندى والذي لفظه من الروضِ أنضر [٢]

وفي ذلك يقول ابن فركون:

هو الناصر المولى الذي جودُ كفهِ من الغيث أندى أو من الشمسِ أشهر

كما تأثر بابن عبدربه في قوله:

يا مَن عليهِ رداءُ البأسِ والجودِ من جودِ كفّكَ يجري الماءُ في العودِ[٣]

وقد اقتبس من كتاب الله بعص صورة كما في قوله:

ضاقت عليهم أرضهم فتوقفوا والماء يجمع نفسه في الجدول[٤]

---

(١) ديوان مهيار الديلمي مهيار بن مرزويه، أبو الحسن الديلمي المتوفى سنة (٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) جـ ١/ صـ٤٤٠ تم استيراده من نسخة: المكتبة الشاملة المكية

(٢) ديوان ابن نباتة المصري، لجمال الدين بن نباتة المصري الفاروقي (المتوفى: ٧٦٨ هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، جـ١/ صـ ٢٣٥، أعده للشاملة: رابطة النساخ، تنفيذ (مركز النخب العلمية)

(٣) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، لأحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير بن سالم أبو عمر، المتوفي، ٩٣٩ م) جـ١/صـ ٧٠ ، تم استيراده من نسخة : المكتبة الشاملة المكية.

(٤) ديوان ابن فركون ، صـ ١٩٧

من قول الله تعالى: (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) [1]

وبذلك نهل من سابقيه واستفاد من معاصريه، فامتازت صوره بالفصاحة والسلاسة والوضوح ولا سيما في مديحه للملوك، إلا أنه كرر بعض الألفاظ والتراكيب في صوره المدحية، كونها صفات الملك التي لا تتغير .

ثانيا: التكرار :

فكل تكرار يحمل في ثناياه دلالات نفسية وانفعالية مختلفة تفرضها طبيعة السياق الشعريّ. "التكرار من أهمّ الأدوات الجماليّة التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره، ولابدّ أن يركّز الشاعر في تكراره، كي لا يصبح التكرار مجرد حشو، فالشاعر إذا كرّر وألحّ فقد أظهر للمتلقّي أهميّة ما يكرّره مع الإهتمام بما بعده، كي تتجّدد العلاقات، وتثري الدلالات وينمو البناء الشعري"[2] والمطالع لشعر ابن فركون يجد بعض الألفاظ قد كررها الشاعر في صوره المدحية، "ولعل السبب في ذلك أنه وجد في هذه المفردات والتراكيب قدرة التعبير عن معانيه، فآثر تكرارها في كل مرة عرض له فيها أحد هذه المعاني، التي يستوجب وجود مثل هذه المفردات والتراكيب"[3] إذ تعمل تقنية التكرار على إبراز المعنى وتقريره في النفس، والعناية بممدوحه والتركيز على صفات أساسية في ممدوحه. وقد "لجأ

([1]) سورة التوبة صـ ١١٨

([2]) الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، مدحت سعيد الجبار، ليبيا، الدار العربيّة للكتاب،سنة ١٩٨٤م، صـ ٤٧.

([3]) ابن فركون الأندلسي، شاعر غرناطة، صـ١٧١

الشعراء إلى تكرار الإسم الممدوح حرصا منهم على التنويه به، والإشادة بذكرهِ تفخيماً له في القلوب والأسماع"[١]

وقد دأب ابن فركون على استخدام هذه التقنيّة الفنيّة على مستوى قصائده ليصور أهمية ما يمنحه لممدوحه من صفات، وقد ورد التكرار عند ابن فركون على مستوى عدة أبيات، فمن ذلك تكرير اسم الإشارة في عدة أبيات:

هـذي الخلافـةُ قـد ملكـتَ قيادهـا وأجلـتَ فـي طلـقِ السـعودِ جيادَهـا
هــذي ملائكــةُ الســماءِ تنزلــتْ بالنصـر تنجدُ فـي الـوغى أجنادَهـا
هـذي البشـائرُ قـد رفعـتَ لواءَهـا وأقمـتَ بالصـنعِ الجميـلِ عمادَهـا
هــذي العــزائمُ كلَّمــا أعملتَهــا أبعـدت فــي شـأوِ العلــى آمادَهـا
هذي الكواكبُ تستقلُ سعودُهــا لك حيثُ تُطلـعُ للعدى أضدادَهـا[٢]

ومن تكرار الجمل قوله:

ألــم يعلمــوا أن الخليفــة يوســفا مناقبــه شُــهبَ الســماء تُكــاثر
ألم يعلموا أن ابن نصرٍ حسامــهُ عن الــروع لا وانٍ ولا متقاصرُ[٣]

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده، لابن رشيق القيرواني، ج٢، صـ ٧٤، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣، مصر المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٦٤م.
(٢) ديوان ابن فركون ، صـ ٢٢٥
(٣) السابق ، صـ ١٩٩

فالتكرار الذي لجأ إليه الشاعر تمثل في شيئين أساسيين هما مستوى إيقاعي موسيقي، والآخر دلالي نفسي، لمن ينكر حقيقة ممدوحه الواضحة، ومن ذلك قوله:

هو اليوسفيُّ الناصرُ الملك الذي عزائمهُ تخشىَ ورحماهُ تُرتَجى
هو اليوسفي العالمُ العلمُ الذي عواملهُ شهبٌ من النقعِ في دجى
فهذا إمامٌ تابعٌ جدهُ الذي غدا سيّدَ الانصار أوسا وخزرجا[1]

فقد كرر (هو اليوسفي) واسم الموصول (الذي) ثلاث مرات، وتكرار اسم الممدوح للاستئناس والتلذذ بذكره، والاهتمام بشخصه، والارتفاع من شأنه. ومن تكرار الاسم قوله:

هو ناصر الدين الخليفة يوسفٌ ملك غدا كهف الملوك ثمالها[2]
ملك كأن الشمس غرة وجهه تهدي إلى سبلِ الهدى ضلالها
ملك كأن الغيث جود يمينهِ مهما أنال القاصدين نوالها [3]

([1]) السابق ، صـ ١٩٤

([2]) ثمالها: الملجأ والغياث . قال أبو منصور : معناه أن يكون ثمالا لهم أي : غياثا وقواما يفزعون إليه . والثمل : المقام والخفض ، يقال : ثمل فلان فما يبرح . واختار فلان دار الثمل أي : دار الخفض والمقام . والثمال – بالكسر – : الغياث . وفلان ثمال بني فلان أي : عمادهم ، وغياث لهم يقوم بأمرهم ؛ قال الحطيئة :

فدى لابن حصن ما أريح فإنه ثمال اليتامى عصمة في المهالك

وقال اللحياني : ثمال اليتامى غياثهم . وثملهم ثملا : أطعمهم وسقاهم وقام بأمرهم ؛ وقال أبو طالب يمدح سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل. لسان العرب، مادة ث/م/ل.

([3]) السابق ، صـ ١١٦

فقد كرر لفظة (ملك) ثلاث مرات لابراز مدى أهميته في قلب الشاعر .ومن تكرار الجمل، ما نطالعه في استفهامه على مستوي البيتين الآتيين:

أولـيس مـن أوصـافكَ الشـيمُ التـي غـدت الملـوك بـذكرها تَتَبـاهى
أولـيس مـن أوصـافكَ الهمـمُ التـي تبغي النجـوم النـيرات عُلاهـا[١]

ومثل ذلك قوله:

وهـــل يوســف إلا إمــامٌ مؤيّــد لـه تخضـع الصـيد الملـوك الجحـاجح
وهــل يوسف إلا إمـامٌ لــعزمــه تلين صروف الخطب وهي جوامح[٢]

وقد ألح ابن فُركون على تكرار لفظة الهمام في جل صوره المدحيه،(في قصائد عدة) ولعلها كانت الصفة الجامعة والمحببة للملك يوسف الثالث، حيث كان يقول مفتخرا:

أنـا الهمـام الـذي تُخشـى عزائمــه في الحرب أن كتَّب الأجناد أو كتبا
أنا الإمــام الذي تُرجى مكــارمه لله منها خــلالٌ فاقت السحــبا [٣]

وبذلك كان التكرار سمة أساسية في صور ابن فركون على مستوي عدد من القصائد كلفظ(الهمام) وعلى مستوى عدة أبيات كما في الأبيات السابقة، وقد منح هذا التكرار "النصَّ إمتداداً وتنامياً في الصور والأحداث لذلك يعدّ نقطة

(١) السابق ، صـ ١٦٩
(٢) السابق ، صـ ١١١
(٣) ديوان يوسف الثالث، صـ ١٣

إرتكاز أساسية لتوالد الصور والأحداث وتنامي حركة النصّ"[1] فضلا عن أثره العظيم في توفير الجانب الدلالي والموسيقيّ، ويكشف عن لواعج الشاعر واهتماماته الداخلية.

(1)حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر، حسن الغرفي، المغرب، إفريقيا الشرق، سنة ٢٠٠١م، صـ ٨٤.

المطلب الثاني

الموسيقى الشعرية.

أولا: الموسيقى الخارجية.

ثانيا: الموسيقى الداخلية.

الموسيقى الشعرية.

الشعر فن يخاطب المشاعر والأحاسيس، والموسيقى كلام موسيقي يطرب الأذان والأسماع، " فللشعر نواح عدة للجمال، أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع، وتردد بعضها بعد قدر معين منها، وكل هذا ما نسميه بموسيقى الشعر"[١] فالأذن هي المستقبل الأول للشعر، فإذا حسن الجرس الموسيقي استحسنت الصور والأخيلة بعد ذلك.

كما أنها تعد من أهم عوامل الإطراب والتناغم في النفس"هذا إلى جانب أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال، وتجعله مصقولاً مهذباً، تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه".[٢] وهي قسمان: خارجية وداخلية.

أولاً: الموسيقى الخارجية

وتتمثل الموسيقى الخارجية في الوزن والقافية ويعد الوزن سمة الشعر الأساسي، فهو "أعظم أركان حدّ الشعر وأَوْلاها به خصوصيّة، وهو مشتمل على القافية، وجالب لها ضرورة"[٣] ، وبه يتميز الشعر من النثر، وقد نظم ابن فركون صور بطله على عدة بحور شعرية، مال إليها الشعراء القدماء كالبحر الطويل، والكامل، والبسيط، وإن كانت هذه البحور كثيرة المقاطع تتناسب مع فن المديح كما أشار بعد النقاد، إلا أن ابن فركون نظم فيه أيضا

---

(١) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة السابعة، سنة ١٩٨٨م صـ ٦-٧

(٢) موسيقى الشعر إبراهيم أنيس، صـ ١٦

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق جـ١، صـ١٣٤.

الغزل والرثاء والتهاني، وغير ذلك. فالشاعر الأصيل ماكان ليقف قبل صياغة ما في نفسه من عواطف مختلفة مفكراً أو متأملاً في طبيعة الإطار الإيقاعي المحتوي لقصيدته، فالوزن الشعري يأتي دائماً وأبداً تالياً لسيل الأحاسيس المتفجر بالكلمات الموحية.

"وقد غلب على ابن فركون استخدامه الأوزان التامة ذات المقاطع الطويلة في شعره، أما المجزوءة فقليلة"[١] فهو شاعر طويل النفس يعرض أفكاره وصوره في ألفاظ وتعابير كثيرة تتناسب مع الأبحر الطويلة. فاحتل بحر الطويل المرتبة الأولى عند الشاعر يليه الكامل ثم البسيط. وهاك جدول يوضح نسبة كل بحر على حدة:

م	البحر	عدد القصائد والمقطوعات	النسبة المئوية
١	الطويل	٢٦	% ٥٠,٩
٢	الكامل	١٣	% ٢٥,٤
٣	البسيط	٥	% ٩,٨

(١) ابن فركون الأندلسي شاعر غرناطة ، قاسم القحطاني، صـ١٨٥

وهذا الجدول يوضح نسبة استخدام الشاعر لهذه البحور الشعرية في فن المدح، ومن بحر الطويل قوله:

هو الملكُ المولى الهمامُ الذي لهُ مكارمُ تُزري بالغمَائم مُسْبلهْ
ورأي رشيدٌ لو تقادمَ عهدُهُ لأمّله فيه الرشيد وأمَّ لهْ[1]
من النفر الغرِّ الذين وجوهُهُم لإشراقها تعنو البدورُ مكمَّلهْ [2]

وقد جاء مقبوض العروض والضرب، ومن بحر البسيط المخبون العروض والضرب، قوله:

من كابن نصرٍ إذا عد الملوك بها مولى لصحبِ رسول الله ينتسبُ
آباؤه النفر الغر الذين لهم مآثر عظمتها العجم والعربُ[3]
والعربُ[3]

يليه في المرتبة الثانية بحر الكامل، ومن ذلك قوله:

فلأنت أسماهم وأسناهم إذا طالوا وأنجز في المكارمِ موعدا
وأجلَّهم قدرا وأشرفهم حلا وأعمُّهم رفدا وأنداهم يدا
إن السحاب وإن تتابع جودُها لم تتخذ إلا نوالك موردا [4]

([1]) الرشيد: الخليفة هارون الرشيد، أَمَّلَهُ (تَأْمِيلًا) وَ (تَأَمَّلَ) الشَّيْءَ نَظَرَ إِلَيْهِ مُسْتَبِينًا لَهُ. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، طبعة دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م مادة أ/ م/ ل.

([2]) السابق ، صـ ١٠٤

([3]) السابق ، صـ ١٤٨

([4]) السابق ، صـ ٢٤٣

وهو"من البحور الشعرية التي يطرقها الشعراء، ويألفها آذان الناس في بيئة اللغة العربية"[١] ، فيتكون من ثلاثين "حركة لم تجتمع في غيره من الشعر، وله تسعة أضرب لم يحصل عليها بحر آخر"[٢] ثم يأتي بحر البسيط في المرتبة الثالثة لدى الشاعر، كما في قوله:

مــولاي لــولا جــود كفــك لــم أجــد إبـــداع أمـــداحي ولا إبـــداءَها
فإليك وصفًا لم تلحْ شهبُ الدجى إلا وباهى حُسنـــها وبهــاءَها [٣]

كما نظم على بحري الوافر والرجز بصورة ضئيلة إذا ما قورن ببحري الطويل والكامل، وبذلك نوع في نظمه لممدوحه على عدد من البحور الشعرية المختلفة، إلا أنه أكثر من البحور التي نظم عليها القدماء.

القافية:

والقافية تقنية من تقنيات توقف الإيقاع المنتظم في الأبيات ، وهي تقوم على تكرار قافية موحدة في كل بيت، وهي إما مطلقة أو مقيدة، فالأولى يستمر معها الإيقاع الصوتي والنفسي لفترة معينة، والساكنة تتوقف عندها حركة الإيقاع تماما.

ومن القوافي الساكنة قوله:

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د/ عبدالله الطيب المجذوب، جـ١، مطبعة حكومة الكويت، ط٣ ، سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. صـ١٨٩

(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، د/ صابر عبدالدايم، مكتبة الخانجي – القاهرة، سنة ١٩٩٣م، صـ ٨٧

(٣) السابق ، صـ ٣٧٤

ناصر الدين خذ إليك بشارهْ قد كستها الفتوح أبدع شارهْ
تُجتلى في البلاد غربا وشرقا فتباهي الكواكب السيارهْ [1]

ومن ذلك قوله:

هو الملكُ المولى الهمامُ الذي لهُ مكارمُ تُزري بالغمَائم مُسْبلهْ
ورأي رشيدٌ لو تقادمَ عهدُهُ لأمّله فيه الرشيد وأمَّ لهْ[2][3]

لكن الغالب على قوافيه الإطلاق، فبه يمتد النفس ويُخرج الشاعر ما بداخله من تصوير وإعجاب، مثل قوله:

حسامكَ مسلولٌ وسهمك صائب وجندكَ منصورٌ وسعدك فاتحُ
ورفدكَ ممنوحٌ وعفوكَ شاملٌ وبِشركَ مبذولٌ وفضلك واضحُ
وها أنا يا مولاي قصدي مبلَّغٌ بما كنتُ أرجوه وتجري رابحُ[4]

وقد استخدم ابن فركون عدة حروف تصلح للروي، وقد نأي عن الحروف الثقيلة التي لا تصلح أن تكون رويا كالظاء والشين والغين، ومن أكثر الحروف التي اتخذها رويا: الباء والهاء والدال والتاء والميم والحاء حيث تحظى بأكبر نسبة في الاستخدام روياً عند الشاعر.

---

(1) السابق ، صـ ١٦٦
(2) الرشيد: الخليفة هارون الرشيد، أَمَّلَهُ (تَأْمِيلًا) وَ (تَأَمَّلَ) الشَّيْءَ نَظَرَ إِلَيْهِ مُسْتَبِينًا لَهُ. الصحاح للجوهري ، مادة أ/ م/ ل
(3) السابق ، صـ ١٠٤
(4) السابق ، صـ ١١١

ثانيا: الموسيقى الداخلية

تقنية الموسيقى الداخلية: تتولَّد بفضل انسجام الحروف والكلمات والجُمل والعبارات، وتكرار حرف روي القافية في الحشو يعمل على زيادة وحدة النّغم الموسيقى في القصيدة، ويُكثِّف الجانب الإيقاعي فيها. ولا تكاد تخرج هذه الموسيقى عن عدة تقنيات أهمها ما يلي:

١- **الجناسُ:**

وهو تشابه كلمتين مع اختلافهما في المعنى . ويلعب دورا كبيرا في التأثير على المتلقي إذا ما أحسن الشاعر توظيفها، وهو من أبرز الوسائل اللّغويّة لتكثيف النّغم الدّاخلي، وإحداث نغمات موسيقيّة مُتصاعدة.

ومن ذلك قوله:

وسيفك سيف الله إذ حل ربعـــها أبـــاح به جمع العدى وأبـــاده [١]

ومن الجناس الناقص قوله:

لكأن به والـــروم عنـــد لقائـــه لـــم يغن عنها عدُّهـــا وعديدهـَـا[٢]

ومن التجنس قوله:

ورأي رشيـــدٌ لو تقادمَ عهـــدُهُ لأمّـــله فيه الرشيـــد وأمَّ لـــهْ[٣][٤]

([١]) ديوان ابن فركون ، صـ ١٥٧

([٢]) السابق ، صـ ٢١٧-٢١٨

([٣]) الرشيد: الخليفة هارون الرشيد، أَمَّلَهُ (تَأْمِيلًا) وَ (تَأَمَّلَ) الشَّيْءَ نَظَرَ إِلَيْهِ مُسْتَبِينًا لَهُ. الصحاح للجوهري ، مادة أ/ م/ ل

([٤]) السابق ، صـ ١٠٤

هو الإمامُ الذي إحسانُهُ أبــدَا وحسنُهُ سَننٌ هـــادٍ إلى السُّننِ [١]

والحق أن الشاعر لم يلح على ألوان الموسيقى الداخلية من جناس وازدواج وحسن تقسيم، بقدر ما ركز على الجانب المعنوي، والمطالع للموسيقى الداخلية عند ابن فُركون يجد تفاعلا بين اللفظ والمعنى يكسب الموسيقى الداخلية جمالا، ويجعلها أكثر جاذبية، وهو ما نعنيه بالموسيقى المعنوية للصورة الفنية.

فإذا أحسن الشاعر استخدام هذه الآلية فإن ذلك يضفي على النصّ حلية إيقاعية ودلالية موحية. ولا يفوتنا هنا الانتباه بأنّ الأساس "في التكرار أنّ اللفظ المكرّر ينبغي أن يكون وثيق الإرتباط بالمعنى العامّ وإلّا كان لفظية متكلّفة لا سبيل إلى قبولها. كما أنّه لابدّ أن يخضع لكل ما يخضع له النصّ عموماً من قواعد ذوقية وجمالية".[٢] ومن ذلك قوله:

محيـــاهُ يحكي البدر ليلـــة تمِّـــه ويمنـــاهُ تحكي العارضَ المتدفـقَا[٣]

المتدفـقَا[٣]

وما يلحق بتكرار الكلمة ما يُسمّى بالتكرار الصرفيّ، حيث تتوالى في الجملة أو المقطع كلمات: أسماء أو أفعال، على وزن صرفي واحد، وهو تكرار يوفّر للنص إيقاعاً موسيقياً مؤثراً؛ و"كما يخضع لهندسة عاطفية فإنّه يخضع أيضاً لهندسة موسيقيّة"[٤]

---

(١) السابق ، صـ ٢٧٣

(٢) قضـايا الشـعر العربـي المعاصـر، نـازك الملائكـة، الطبعـة الثالثـة، بغـداد، منشـورات مكتبة النهضة، سنة١٩٦٧م، صـ ٣٢١.

(٣) السابق ، صـ ٢٠١

(٤) قضايا الشعر العربي المعاصر، نازك الملائكة، صـ ٤٧٩

٢- **حسن التقسيم**

هو تجزئة الوزن إلى مواقف، أو مواضع يسكت فيها اللّسان أو يستريح في أثناء الأداء الإلقائي. وهو وقفان: عَروضي وصوتي. العَروضي: نهاية التّفعيلة. والصّوتي: الّذي ينقطعُ عنده الصّوت. ومن ذلك قوله:

إمامٌ له حلـــمٌ وعلـــمٌ ونائلٌ وحــزمٌ وإقــدامٌ ومجــدٌ مؤثــلُ[١]

وجودٌ كما جـادتْ لدى المحْـلِ ديمةٌ وبشرٌ كما حيَّـا الضُّحى المتهلّلُ [٢]

ونلحظه في قوله:

تواضــعَ فاستعلى بصدقِ يقينـــه وعزّ فــذلَّ الماكرُ المتحـيَّلُ[٣]

ومن حسن التقسيم وجمال التنغيم قوله:

حسـامكَ مسـلولٌ وسـهمك صـائب وجنــدكَ منصــورٌ وســعدك فــاتح
ورفـدكَ ممنـوحٌ وعفــوكَ شامـلٌ وبِشركَ مبــذولٌ وفضلك واضــح[٤]

ومن حسن التقسيم الذي يساهم في إحداث التناغم الموسيقي الداخلي قوله:

مقامــك محمــودٌ وعــدلكَ شــامل وظلــك ممــدودٌ وجهــدُك ذائــع
وحزبك منصـــور وعــزُّكَ قــاهرٌ وجــودك مبــذولٌ وحلمــكَ واســع

---

(١) السابق ، صـ ١٧٣

(٢) الديمة : ديم الديمة المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق أقله ثلث النهار أو ثلث الليل وأكثره ما بلغ من العدة والجمع ديم . لسان العرب: مادة د/ي/م .

(٣) ديوان ابن فركون ، صـ ١٧٢

(٤) ديوان ابن فركون ، صـ ١١١

وكفك بحرٌ والخلائفُ ترتجي نداها فطامٍ بالنوال وطامعُ[1][2]

هو النصر قد أجرى لديك جياده هو الفتح قد ألقى إليك قيادهُ [3]

وبذلك أضفى حسن التقسيم على صورممدوحه جمالا نغميا، وسلاسة تعبيرية تطرب الأذان وتعجب المستمعين.

٣- التصريع

من المحسّنات اللّفظيّة وهو يقع في الشِّعر، دون النّثر، ويُستخدم عند افتتاح القصيدة، وهو: أن تكون تقفية العروض هي تقفية الضّرب نفسها، وقد حرص ابن فركون عليها في مطالع قصائده، فمن ذلك قوله:

ناصر الدين خذ إليك **بشارهْ** قد كستها الفتوح أبدع **شارهْ** [4]

وقوله:

هو النصرُ قدْ أجرى لديكَ **جيادهُ** هو الفتحُ قدْ ألقى إليكَ **قيادهُ** [5]

ونطالع أيضا التصريع في قوله:

أ يا رحمة الله فوق **العبادْ** ومولى الملوكِ وحامي **البلادْ** [6]

---

(1) نَدَا الرَّجُلُ بِمَالِهِ : أي جَادَ .
(2) السابق ، صـ ٣٧٧
(3) ديوان ابن فركون ، صـ ١٥٧
(4) السابق ، صـ ١٦٦
(5) ديوان ابن فركون ، صـ ١٥٦
(6) السابق ، صـ ١٣٩

وتتكرر الأبيات المصرعة كما في قول:

مُحياكَ يهدي فجـــرهُ **المتواضِّحُ** فمرآهُ للأبصار مَرْقى **ومطمحُ** [١]

ونلحظه في قوله:

معالمَ الدولةِ النصْريةِ **اتضحَتْ** بيوسفٍ ومرامي قصدهِ **نجحتْ** [٢]

فجاءت جلُّ قصائد ابن فركون مصرعة، كي تنال إعجاب الممدوح، فإذا حسن المطلع حسن ما بعده وكان أولى بالقبول، لذا حرص الشاعر في قصائدة على التصريع ليطرب ممدوحه ومستمعيه. وبذلك كان للجناس وحسن التقسيم والتصريع أثر واضح في إثراء الموسيقى الداخلية لصورة ممدوحه القائد والإنسان، وجعلها أكثر قبولا وتأثيرا في الآخرين.

---

(١) السابق ، صـ ٢٠٤

(٢) السابق ، صـ ١٧٤

المطلب الثالث

الصورة الشعرية.

أولا: الصورة التشبيهية.

ثانيا: الصورة الاستعارية.

ثالثا: الصورة الكنائية.

الصورة الشعرية:

فالصورة الشعرية تعد وسيلة من وسائل التعبير الفني تعرض المعنى في صورة تموج بالحركة والحيوية والجمال، ووسائل تشكيلها من وسائل التعبير المتاحة للشاعر من الألفاظ و العبارات الحقيقية، مع عدم إهمال البيان و البديع و دورهما في تشكيل الصورة. ومن ضروب البيان مايلي:

١. الصورة التشبيهية

تعد الصورة التشبيهية تقنية من تقنيات بناء الصورة لدى ابن فُركون، فهي بمثابة "لبنة من لبنات بنية الصورة الشعرية، ومهما يكن حجمها فإنها تؤدي دوراً له قيمته في لحمتها، وقد يكون عاملاً حاسماً في جماليات الصورة"[١] لما له من قدرة على التأثير في النفس، إذ يقوم التشبيه بالربط بين الصفات المشتركة " أو مجموعة صفات تستند إلى متشابهات حسية وربما على مشابهات ذهنية عظيمة"[٢]

كما تتجلى قيمة التشبيه الخفية "في التعبير عن المعاني، ونقل الأفكار وإمتاع النفوس بالصور والأخيلة وتقريب الكلام إلى الأذهان والسموّ به من أرض الواقع إلى فضاء الخيال، وكلما تدرج المرء في هذا الارتفاع كان تصويره أبعد أثراً في القلب، وأشد رسوخاً في النفس".[٣]

---

(١) التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، عدنان حسين قاسم، صـ٧٨، الدار العربية للنشر والتوزيع مدينة نصر القاهرة ، ط٢، سنة ٢٠٠٠م.

(٢) الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، د/ علي إبراهيم أبو زيد، صـ ٢٦٠، طبعة دار المعارف، ط١، ١٩٨١م.

(٣) علم أساليب البيان، د/ غازي يموت، صـ ١٨٣، الطبعة الأولى، دار الأصالة ، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

واستند في صورته على التشبيه أربع مرات في الصورة الآتية لترسم شجاعة بطله وكرمه وتُجسدها في أبهى صورة وأجمل منظر، وفي ذلك يقول:

فحزمٌ كليثِ الغابِ يحمي ذمارَه وعزم كما قد هُزّ في الروعِ مُنْصلُ
وجودٌ كما جادتْ لدى المحْلِ ديمةٌ وبشرٌ كما حيَّا الضُّحى المتهلّلُ[1][2]

كما أن له القدرة على إيجاد الصلات بين المتشابهات المختلفة ، إذ إن محور التشبيه الصورة الحسية، التي تدرك بالحواس، ومن الصور الجزئية قوله:

وأرسلت في البحر الأساطيل نزعًا تراوح أقطار العدى وتُباكرُ
يراوغ بعضٌ بعضها متلاعبا كما لعبتْ وسْط الفلاةِ جآزرُ[3]
وقد جللوها بالسواد كأنما مجادفُها هدبٌ وهنَّ نواظرُ
ويطفو حباب الماء في جنباتها كما فتحت وسطَ الرياض الأزاهرُ[4]

نطالع عدة صور جزئية عمادها التشبيه تضافرت لرسم مشهدا يموج بالحركة والحيوية والحياة، فصورة السفن في البحر تشبه البقر الوحشي في سرعته وسط الصحراء. فتجد الشاعر" يقرب بينها لأنه اكتشف العلاقات بينها بروحه وخياله، وليس بحواسه، ومن ثم فإنه يهتدي بوحي من الروح

([1]) الديمة : ديم ديم الديمة المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق أقله ثلث النهار أو ثلث الليل وأكثره ما بلغ من العدة والجمع ديم . لسان العرب: مادة د/ي/م .

([2]) ديوان ابن فركون ، صـ ١٧٢

([3]) جآزر: البقرة الوحشية.

([4]) السابق ، صـ ١٩٩

والخيال إلى هذه العلاقات الأكثر خفاء وعمقا"[١] فقد استمدها من عناصر الطبيعة البرية والبحرية (البحر- الفلاة-جآزر-حباب الماء- الرياض- الأزاهر) ، وقد تضافرت هذه الصور الجزئية من استعارية وتشبيهية وكنائية، لرسم صور ممدوحه في الشجاعة والإقدام، والكرم والعطاء، والجمال والإشراق، فضلا عن قدرته الفنية في استخدتمه لدلالات الألفاظ من ترادف ومجاز وغير ذلك لتكوين صورته الفنية التي يبغيها لبطله الملك يوسف الثالث.ومن صوره الكلية القائمة على التشبيه ما نطالعها في رسم صورة أمير غرناطة، فمن ذلك قوله :

كـأنَّ نجـوم الأفْـق جـيشٌ مُحَـلأٌ تَواريــه فــي نَهْــر النهــار وردُه
كـأنَّ طُلــوعَ البَـدرِ عِنــد تَمامِــهِ مُحَيـاً بـن نَصْـرٍ والكَواكِـبُ جُنـدُهُ
كـأنَّ الضـحى وجـه الخليفـةِ يُوسُـفٍ وما احْمر فيه من سَنَا الفَجرِ بَندُهُ
كــأنَّ سَنَا الأُفْقِ المـوَردِ سيفُــه وقد راق من تحت النَجِيعِ فَرِنْــدُهُ[٢]

وتقوم هذه الصورة الكلية علي عدة صور جزئية، وعمادها التشبيه، وقد تضافرت هذه الصور جميعها لتكون صورةً كلية تبرز جمال الممدوح وإشراق وجهه. وقد استمدها من مظاهر الطبيعة المختلفة ، مثل لفظة (الفجر ، الليل ، والنجوم ، القمر ، الكواكب).

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ علي عشري زايد، طـ ٤ القاهرة، مكتبة ابن سينا، سنة ٢٠٠٢م، صـ ٦٩

(٢) ديوان ابن فُركون ، صـ ١٣٤

ثانيا: الصورة الاستعارية:

الاستعارة هي منح صفة لشيء معين لم تكن فيه وقد عرَّفها أبو هلال العسكري بكونها "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض..." [١] ومما يرفع من شأن الاستعارة أيضا توفر عنصر التشخيص فيها ، وهو واحد من طرائق التعبير التصويري الفني.[٢]، الذي يجعل الجماد حيا والشيء الأعجم فصيحا ، ويمنح الصورة الحيوية والحياة ، ومن ذلك قوله حين يصور كرم السلطان يوسف:

هو الملك الأعلى الهمام الذي غدا لديه مجال العز وهو رحيبُ
فيهمِي نداه كلما بخل الحيا وإن مطل الإصباحُ عنه ينوب
فتسعف قصادٌ وتقضى مآرب ويمْرَعُ من رَبع العفاة جديب[٣]

حيث شبه الشاعر السحاب المعبأ بالأمطار، بإنسان يبخل ويضن بمائه، في الوقت الذي يجود فيه السلطان يوسف، إن وظيفة الاستعارة ليست تجميلية؛ وإنما جمالية تحقق انسجاما بين العناصر المتباعدة؛ لتلقى قبولا لدى الآخرين. وتتوالى الصور بعد ذلك تدعو المتلقي كي يتمهل في كشف المعنى الخفي في بنية البيت، فمن ذلك قوله في تصوير جود ممدوحه:

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم– مصر ، صـ ٢٦٨

(٢) ينظر الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، د/ عبدالله التطاوي، صـ٤٧، جـ١، ١٩٩٧م، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

(٣) ديوان ابن فركون ، صـ ١٥٥

تجــودُ إذا ضــنَّ صــوبُ الحيــا وتُقبــلُ والـدهر قـد أعرضـــا[١]
وتُقبلُ عــنَّا دَيــاجِي الخُطــوبِ بكفِّكَ سيفُ الهــدى منتضى [٢]

شبه نزول المطر من السماء بإنسان يبخل عليهم، وحذف المشبه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو البخل.

ومن صور الكرم الكلية للسلطان يوسف، المبنية على الصور الجزئية من الاستعارية والكنائية ما نطالعها في قوله:

يا ناصرَ الإسلامِ يا ملكَ الهدى لازلــتَ منصــورَ اللــواء مؤيــدا
فُقــتَ الملــوكَ الأكــرمينَ مــآثرا فبلغت في شأو العلى أقصى المدى
فلأنــت أســماهم وأســناهم إذا طــالوا وأنجز في المكارم موعــدا
وأجلَّهــم قــدرا وأشــرفهم حــلا وأعمُّهــم رفــدا وأنــداهم يــدا
إنَّ السحابَ وإن تتابع جودُهــا لـم تتخــذ إلا نــوالك مــوردا
أوليسَ جودكَ فوق عبدكَ إذ همَى أضحى لأثــوابِ القبولِ مجــددا[٣]

شبه السحاب بإنسان جواد مستمر العطاء، على سبيل الاستعارة المكنية، ومع ذلك فمصدر عطائها وموردها من فضل ممدوحه الملك يوسف الثالث. فـ (أنداهم يدا)كناية عن الجود والكرم، وتجسيد الجود في قوله: (أوليسَ جودكَ فــوق عبدكَ إذ همَى)، كل ذلك عمل على إثراء صورة بطله

(١) الصَّوْبُ نزول المطر وبابه قال و الصَّيِّبُ السحاب ذو الصَّوب و صابَهُ المطر أي مُطر، و الحَيَا مقصور المطر والخصب ، الصحاح للجوهري: مادة ص/و/ب – و مادة: ح/ي/ا

(٢)ديوان ابن فركون ، صـ ١٩١

(٣) السابق ، صـ ٢٤٢– ٢٤٣

الجواد وبذلك أضفى الشاعر على صوره مسحة جمالية، بوسائل المجاز المختلفة التي تحيي الصورة وتجعلها أكثر حيوية وحركة وحياة من خلال التجسيد حينا والتشخيص حينا آخر.

ثالثاً: الصورة الكنائية:

تشير الكناية إلى معنى غير معناها الأصلي إذ إن لها معنيان معنى ظاهري وآخر باطني حقيقي " وتتمثل قدرتها في السمو بالمعنى والارتفاع بالشعور "[١] فمن صوره الكنائية قوله:

وكفــك للعــافين تنــدى غمامــةً وســيفُك يــذكي جاحمــا متأججــا
كـذلك مـن شـأن الغمـام انسـكابها إذا مــا تريــك البــارق المتوهجــا
كـــأنَّ مثـــارَ النقـــع ليل وفجـــرُهُ حسامك يبدو خاضـبا متضرجـا[٢]

جميع هذه الصور الجزئية من كنائية واستعارية وتشبيهية تلاحمت لرسم صورة بطله جاعلا جسرا رابطا بين جزئيات صورته متمثلا في خيال الشاعر وصدق مشاعره تجاه الممدوح. وقد اشتركت مع الصورة الكنائية الصورة التشبيهية لاكتمال صورة الجود والشجاعة للسلطان يوسف الثالث، ومن صوره الكنائية ما نطالعها في قوله:

هو الناصر المولى الذي جودُ كفهِ من الغيث أندى أو من الشمسِ أشهر[٣]

فقوله: (الغيث أندى) كناية عن الجود الوفير، وقوله:(الشمس أشهر): كناية عن الشهرة والذيوع. وتتكرر الصورة الكنائية عند شاعرنا كما في قوله:

وكفــك بحــرٌ والخــلائفُ ترتجــي نداهـا فطـــامٍ بالنـــوال وطامــعُ [٤]

---

(١) العمدة لابن رشيق، صـ ٢٢١
(٢) ديوان ابن فركون ، ص١٩٤.
(٣) السابق ، صـ ١٥١
(٤) السابق ، صـ ٣٧٧

فـ(كفك بحر)كناية عن الجود الوفير، ومما زاد الصورة جمالا أن جميع الخلائف ترتجي نوالا منه عن شبع كان وعن طمع، إذ ليس الجود لفئة واحدة.

ونلحظ صورة كلية للسلطان التقي الورع عمادها الصور الجزئية من كنائية واستعارية، حين يقول: (الكامل)

فلكـــم جلـــوتُ لديـــه غُـــرَّ فرائـــد ضـــمَّنتُ أزهـــارَ الحديقـــةِ طرسَـــها
ملـــكٌ صـــــلاةُ صـــــلاتهِ وخلالـــــهُ شـمسٌ تزيـلُ عـن النـواظرِ لبسَـها
حـــــزمٌ وإقـــــــدامٌ وعـــزمٌ في تقًى فـي جـودٍ كـفٍ قـد أقامـت خمسَهـــا
إنَّ الخـــلافة إذْ رأتـــه وليَّـــها وهبتْ لهُ شرعًـا وطبعًـا نفسَها [1]

(في جود كف) كناية عن الكرم وكثرة العطاء، وقوله) أقامت خمسها) كناية عن الصلوات الخمس، وبذلك تجد الصورة الكنائية أبلغ من التصريح وأجمل من الإفصاح، إذ ساعدت في توصيل المعنى في أحسن تصوير وأبلغ تعبير، وأوجز أسلوب يدل على بلاغة ابن فُركون ورهافة حسه. وقد ضمنها الشاعر صورة استعارية أخرى إذ جعل الخلافة فتاةً وهبت نفسها للسلطان شرعا وطوعا، وما ذلك إلا لكونه تقي وورع محافظ على الصلوات الخمس، واشتملت الصورة على اللون في الأزهار، وفي الشمس، والحركة في الإقدام، والصوت والحركة في إقامة الصلوات، وبذلك رسمت هذه الصورة ممدوحه في أحسن حال.

(1) السابق ، صـ ١٤٥

فشعر ابن فركون إذن "غنيٌّ بالصور، شأنه في ذلك شأن الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري"[١] ، ومهمة الصورة الفنية أن تثير في نفوسنا انفعالات وتأثيراً جميلاً "فالنفس الإنسانية مولعة بكل ما هو جميل ، أما المجاز فهو يكسوا الصور الأدبية جمالاً وروعة تجذب إليه النفوس"[٢] وتتشوق إليه النفس، بما تحدثه من إيقاظٍ للوجدان، ولفت نظر الممدوح فيتفاعل معه، وبذلك تعد طريقة خاصة من طرق التعبير الحيوي الجميل.

(١) الشعر الأندلسي، د/ الحسيني، صـ ٣٤٣

(٢) الصورة البيانية، د/ حفني محمد شرف صـ ٢٢١، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة، بدون تاريخ.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،،،

فبعد هذه الجولة التحليلية في تعبير شعر ابن فركون عن الصورة المثالية لممدوحه، تبين لي عدة نتائج، أهمها ما يلي:

- كان لعرض صورة الممدوح في شعر ابن فركون معان عدة، منها ما هو إنساني عتيق، كالكرم والشجاعة ومنها وما هو إسلامي كالجهاد ونصرة وإقامة الدين، استمدها الشاعر من مصادر دينية إسلامية، وهذا يؤكد تدينه والتزامه .
- انصبت جُل صور ابن فركون المدحية على تمجيد السلطان يوسف الثالث، وقد نوع فيها بين الفضائل النفسية والدينية والعرضية، فكانت صورًا قديمة، افتقر فيها إلى التجديد والابتكار.
- جاءت معظم صور الممدوح متداخلة بين الكرم والشجاعة، وبين الصورة الدينية والسياسية حينا آخر؛ حتى لا يكاد نستطيع الفصل بينهما.
- تعد صورة الممدوح لدى ابن فُركون وثيقة تاريخية صورت حقبة زمنية لحكم الملك يوسف الثالث في العصر الغرناصي، فضلًا عن كونها أداة فنية كشفت عن جودة الشاعر وبراعته الفنية، في إسباغ ما يتمتع به بطله من سمات القائد والمجاهد.
- صار ابن فركون في تصوير بطله على عادة الشعراء القدماء كالنابغة الذبياني الذي نعت ممدوحه بالشمس إشراقا، وصوره في أبهى منظر وأحسن حال.

- تدل صورة الممدوح عند ابن فركون على أن العصر الغرناطي كان عصر اضطرابات، بين مد وجزر، إلا أن السلطان يوسف ظل محافظا على ملكه قدر المستطاع، بالجهاد تارة لاسترداد ما سقط في يد العدو الإسباني، وبالمصالحة تارة أخرى.

- استطاع ابن فركون أن يستحضرَ كثيرا من صوره من مواد بيئته البرية والبحرية وأن يوظفَها في شعره خير توظيف.

- نوع ابن فُركون بين صور البيان المختلفة لخدمة صورته الكلية، التي رسمها لممدوحه وغالبا ما تدور حول الكرم والشجاعة والقيادة، وحسن إدارة الأزمات .

- ألح الشاعر على توليد المعاني المختلفة وتكرار بعض الصفات المتصف بها ممدوحه، على مستوى عدة قصائد، وقد بالغ في ذلك، إذ يحاول الشاعر من خلال تقنية التكرار تأكيد فكرةٍ ما تسيطر على خياله وتستحوذ على شعوره.

- أبدع الشاعر من خلال آليات الصورة الفنية في رسم بطله إنسانا، وتقيا، وكريما، وقائدا، مستعينا بدلالات الألفاظ حينا والصور الجزئية المختلفة حينا آخر مما كان لها أثر في جمال وحيوية صورته.

هذا والله من وراء القصد

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر:

١. ديوان ابن فركون تقديم محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. ط١ سنة ١٩٨٧م.

٢. مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر، تأليف: أبو الحسين بن فركون تحقيق: محمد ابن شريفة ، الدار البيضاء. مطبعة الصّباح الجديدة.

ثالثا: المراجع

١. ابن فركون الأندلسي شاعر غرناطة، قاسم القحطاني، ط١، دار الكتب الوطنية أبو ظبي سنة ٢٠٠٩م .

٢. الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د/عبد القادر القط، مكتبة الشباب، بالمنيرة، ١٩٨٨م.

٣. الأدب العربي في الأندلس ، د/عبدالعزيز عتيق، بيروت لبنان دار النهضة العربية د.ت

٤. أسس النقد الأدبي عندالعرب، الدكتور/أحمدبدوي، مطبعة دار النّهضة، القاهرة.

٥. تاريخ الأدب العربي الدكتور شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات العصر الأندلسي، الجزء الثامن، طبعة دار المعارف – مصر الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥ م.

٦. التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، عدنان حسين قاسم، الدار العربية للنشر والتوزيع مدينة نصر القاهرة ، ط٢، سنة ٢٠٠٠م.

٧. حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر، حسن الغرفي، المغرب، إفريقيا الشرق، سنة ٢٠٠١م.

٨. دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني، الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، المتوفى: ٤٧١هـ ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي بالقاهرة.

٩. ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، لأحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير بن سالم أبو عمر

١٠.ديوان ابن مشرف، أحمد بن علي بن حسين بن مشرف ، ت : ١٢٨٥ هـ ، المكتبة الشاملة المكية.

١١.ديوان ابن نباتة المصري، لجمال الدين بن نباتة المصري الفاروقي (المتوفى: ٧٦٨ هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان .

١٢.ديوان المتنبي، لأحمد بن الحسين الكوفي أبو الطيب المتنبي (المتوفى: ٣٥٤هـ) ج١/١٣٢، المكتبة الشاملة المكية

١٣.ديوان النابغة الذبياني، تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرف ، القاهرة.

١٤.ديوان بشار بن برد ، حسين حموي، لبنان بيروت، دار الجيل، ط ١،سنة ١٩٩٦م.

١٥.ديوان سقط الزند ، لأبي العلاء المعري ، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٨م.

١٦.ديوان مهيار الديلمي مهيار بن مرزويه، أبو الحسن الديلمي المتوفى سنة (٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) المكتبة الشاملة المكية.

١٧.ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة، أبو الحجاج يوسف الثالث، تحقيق عبدالله كنون، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية.

١٨.الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري موضوعاته وخصائصه، د/ قاسم الحسيني، الدار العالمية للكتاب- الدار البيضاء -بيروت ط١، سنة ١٩٨٦م.

١٩.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، طبعة دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٢٠.الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم- مصر .

٢١.الصورة البيانية، د/ حفني محمد شرف ، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٢.الصورة البيانية، د/ حفني محمد شرف ، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٣.الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، مدحت سعيد الجبار، ليبيا، الدار العربيّة للكتاب،سنة ١٩٨٤م .

٢٤.الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، د/ علي إبراهيم أبو زيد، طبعة دار المعارف، ط١، ١٩٨١م.

٢٥.الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، د/ عبدالله التطاوي، ، جـ١، ١٩٩٧م، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

٢٦.علم أساليب البيان، د/ غازي يموت، الطبعة الأولى، دار الأصالة، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

٢٧.العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣، مصر المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٦٤م.

٢٨.عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ علي عشري زايد، ط ٤ القاهرة، مكتبة ابن سينا، سنة ٢٠٠٢م.

٢٩.فن المديح د/سامي الدهان ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف – القاهرة.

٣٠.قضايا الشعر العربي المعاصر، نازك الملائكة، الطبعة الثالثة، بغداد، منشورات مكتبة النهضة، سنة١٩٦٧م.

٣١.قضايا النقد الأدبي المعاصر، د/ محمد زكي عشماوي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية، سنة ١٩٧٥م.

٣٢.لسان العرب ، لابن منظور، طبعة دار صادر بيروت– لبنان.

٣٣.المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د/ عبدالله الطيب المجذوب، جـ١، مطبعة حكومة الكويت، ط٣ ، سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣٤.موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، د/ صابر عبدالدايم، مكتبة الخانجي – القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

٣٥.موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة السابعة، سنة ١٩٨٨م .

٣٦.نقد الشعر، لقدامة جعفر، تحقيق محمد عيسى ممنون، سنة ١٩٣٤م.

فهرس الموضوعات

مقدمة : .....
تمهيد: ابن فركون ومصطلحي الصورة والمدح .....
المبحث الأول: المحاور الموضوعية لصورة الممدوح في شعر ابن فركون .....
المطلب الأول: الممدوح الإنسان: .....
أولا: الحسيب النسيب. .....
ثانيا: التقي الورع. .....
ثالثا : الكريم الجواد .....
المطلب الثاني: الممدوح القائد .....
أولا: السياسي الفطن. .....
ثانيا: المجاهد الفاتح. .....
ثالثا: الهمام الشجاع. .....
المبحث الثاني: ملامح فنية لعرض صورة الممدوح في شعر ابن فركون.....
المطلب الأول : المعجم الشعري .....
المطلب الثاني : الموسيقى الشعرية. .....
المطلب الثالث: الصورة الشعرية .....
الخاتمة: .....
المصادر والمراجع .....